



**CONTRIBUTION OF MUŞTAFĀ LUṬFĪ AL-MANFALŪṬĪ
TO MODERN ARABIC PROSE
WITH SPECIAL REFERENCE TO
AL-NAẒARĀT**

DISSERTATION

SUBMITTED IN PARTIAL FULFILMENT OF THE REQUIREMENTS
FOR THE AWARD OF THE DEGREE OF

Master of Philosophy
IN
ARABIC LITERATURE

BY

‘AFAAF KHALID AH SAN

Under the supervision of
DR. MAS‘ŪD ANWAR ‘ALAVĪ
READER IN ARABIC

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)

1993



مساهمة مصطفى لطفى المنفلوطى
فى النثر العربى الحديث
مع الدلالة الخاصة إلى النظرات

عفاف خالد أحسن

لنيل شهادة ايم. فل. فى الآداب العربية

تحت إشراف

الدكتور مسعود ألتور العلوى

الأستاذ المساعد للآداب العربية

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة على كره الإسلامية

على كره

١٩٩٣

DS - 2206



DS2206

فهرست

تقديم البحث	٥ - ١
-------------	-------

الفصل الأول

النثر العربي	١ - ٨٦
--------------	--------

١	مراحل تطور النثر العربي قبل العصر الحديث
٥	مقدمات النهضة الحديثة
١٨	الأحداث المؤثرة في العصر الحديث
٢٥	العوامل المؤثرة في الأدب العربي الحديث
٥٠	النهضة الأدبية الحديثة والنثر الحديث
٧١	الفنون الشعرية في العصر الحديث

الفصل الثاني

المنفلوطي	٨٧ - ١٠٨
-----------	----------

٨٧	حياة المنفلوطي
----	----------------

٩٤	منزلة المنفلوطي في النثر العربي الحديث
----	--

الفصل الثالث

النظرات ١٠٩ - ١٧٥

١٠٩

شئىء عن النظرات

١١٥

النظرات والمنفلوطي

١٢٤

دراسة النظرات

١٧٣

مصادر البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم البحث

البحث في هذه الرسالة الجامعية يدور حول موضوع مساهمة السيد مصطفى لطفى المنفلوطى فى النشر العربى الحديث بالدلالة الخاصة الى النظرات . تشتمل الرسالة الجامعية على ثلاثة فصول . الفصل الأول يبدأ بذكر مختصر جداً عن المراحل التى مر بها النشر العربى قبل وصوله الى العصر الحديث . ثم يأتى ذكر الظروف التى سبقت النهضة الحديثة والعوامل الخاصة التى أثرت فى العصر الحديث ، ثم العوامل الخاصة التى أثرت فى أدب هذا العصر . هنا يلزم ذكر هذه الموضوعات ، لأن لها علاقة خاصة بأدب هذا العصر . فالأدب هو نتاج عصره . يتأثر ولا بد له من أن يتأثر بالبيئة التى تحيط به وبالأوضاع والظروف التى توجد فى عصره . نستطيع أن نرى هذه الحقائق منعكسة فى مرآة الأدب . ثم يأتى دور التحدث عن تطور النشر الحديث والفنون الشعرية فى العصر الحديث حتى نستطيع أن نرى منزلة نشر المنفلوطى فيه ومساهمته له والذى أمد به المنفلوطى . وما دام المنفلوطى لم يكتب إلا نئين من الفنون الشعرية وهما المقالة والقصة ، ذكر هذان الضان كموضوعين خاصين دون الفنون الشعرية الأخرى .

فى بداية الفصل الثانى نجد ذكراً موجزاً لحياة المنفلوطى . ثم منزلته فى النشر العربى

الحديث . فهو أحد الكتاب المعروفين في عصره ، أى العصر الحديث للأدب العربي . أضاف إلى النشر العربي إضافات قيمة في صورة قصصه ومقالاته المؤلفة والمترجمة في تصانيفه العديدة ، كاتباً في موضوعات متنوعة . تميز المنفلوطي عن جميع معاصريه في الأدب العربي بالقدرة الفائقة على تصوير النفس الحزينة والقلوب المتألمة وبيانها وشرحها لهذه الحالة النفسية يسيل الدموع ويذيب القلوب حتى قلده المقلدون في هذه الخاصية وامتداه المقتدون . وتعتمد شهرة المنفلوطي على إنشائه الجميل وتعبيره السهل . فله الفضل في تلطيف أذواق الكتاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً وفي خروج أسلوبه من الجزالة القديمة إلى النعومة الحديثة ومن السجع المصنوع إلى المرسل الطبع . فهو كما يقول عنه بطرس البستاني ، يقف في المنزلة الأولى بين المترسلين . المنفلوطي محدود الثقافة ، لم يتجاوز ثقافته ثقافة الأزهر وقراءة الصحف والمجلات وقراءة بعض الكتب العربية القديمة . لذلك لم تتعمق فكرته ولم تتنوع ولم يتسع خياله ، وامتاز بالأسلوب الكتابي دون جوهر المعاني . بهذا اقتصرت شهرته إلى حياته وعلى أمته وتضاءلت بعد موته . فكتبت له الشهرة المحدودة ولم يقدر لأدبه الخلود في الأدب العالمي . ينتهي هذا الفصل بذكر تصانيفه باختصار .

أما الفصل الثالث فموضوعه النظرات ، وهو مختص بدراسة النظرات التفصيلية . بدايته تتحدث شيئاً عن النظرات بوجه عام والموضوع الذي يليه يتعلق بعلاقة النظرات مع كاتبها السيد المنفلوطي . نرى فيه جوانب من حياة المنفلوطي وشخصيته وأدبه في ضوء النظرات . والموضوع التالي له يشتمل على ذكر نوعي الفنون الشعرية الموجودين في النظرات ودراستها حسب الموضوعات مع ذكر القصص والمقالات المترجمة منها ، وعلى بيان بعض الأفكار الخاصة في النظرات وتوضيح أهم الخصائص الأدبية للنظرات مع الأمثلة .

الحمد والشكر لله الذي أعانني برحمته منه وفضل وقدرى أن أبلغ ما أردت

وما سعيته له وسكن لي أن أكمل هذه الرسالة الجامعية .

أقدم بأجل الشكر والتقدير إلى أستاذي الجليل المحترم فضيلة الدكتور مسعود

أنور العلوي، المشرف على هذه الرسالة الجامعية الذي تفضل بالإشراف السافع اللازم والمطلوب لإعدادها وإخراجها بهذا الشكل، بكل عطف وشفقة. كلما احتجت إلى مساعدة أستاذي المكرم وجدتته بجانب أستاذي المساعد الكريم، لا يرضن عليّ بشئ ومن وقته الثمين رغم مسؤولياته المتنوعة وأعماله الكثيرة، بل يجوده عليّ في كل وقت أريد منه ذلك وبجميع إحساناته ومساعداته حسب حاجاتي وطلباتي. استفدت كثيراً من توجيهات الأستاذ المحترم الرشيدة ومن تشجيعاته أثناء الكتابة. أشكر حرص أستاذي الشفوق المحترم وعنايته البالغة بتوفير جميع السهولات الممكنة لي، لا في سبيل هذا البحث فحسب، بل أيضاً في الأمور الأخرى المتعلقة بهذه المرحلة الدراسية. وجدت موقف الدكتور المحترم دائماً موقفاً مشكوراً، موقف أستاذ كريم، اتجه جميع المشاكل التي قد متها إلى فضيلته. بالإضافة إلى إحسانات الأستاذ المكرم الدكتور مسعود أنور العلوي الكثيرة أشكر أيضاً إحسانه الخاص بالكتب. فقد استطعت بفضل عليّ أن أحصل على كتب من المكتبة في قسم اللغة العربية وآدابها لأخذها إلى البيت لمدة أحتاج فيها إليها. وقد تكرم فضيلة الأستاذ بإعطائي العديد من كتبه الذاتية لأضعها عندي وأستفيد منها حتى أقضي حاجاتي منها.

أهدي أطيب كلمات الشكر وأجمل كلمات التقدير والاحترام إلى الأستاذ المحترم المكرم البروفيسور الدكتور عبد الباري، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها الذي بلغت إلى هذه المرحلة في رعايته. لم أعرف أيأس قط عند أستاذي المحترم الشفوق. اهتم أستاذي الجليل بجميع المشاكل والصعوبات التي واجهتها في طريقي وسخا بجميع إحساناته ومساعداته المشكورة لتذليل هذه الصعوبات. اعتنى فضيلة الأستاذ أشد الاعتناء بأن أحصل على جميع السهولات والتيسيرات التي تمكنني الوصول إلى غايتي. للتشجيعات التي لقيتها من الأستاذ الكريم البروفيسور

عبد الباري والتي سند في وطعاً نني بها دائماً فضيلته أعظم الأثر في الدفاعي في عملي باطنان،
دون أي قلق . كما أشكر فضيلته أيضاً لعلمه النافع الذي سقاني منه وأفادني .

أتقدم بجزيل الشكر أيضاً إلى الأستاذ المحترم البروفيسور الدكتور محمد راشد
الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقاً ، للاستفادة العلمية التي استفدتها من
فضيلته خلال دراستي في هذه المرحلة التعليمية .

لا أستطيع أن أنسى فضل الوالدين المحترمين الشفوقين عليّ ، ومساعدتهما لي،
الذين تكروا بتعاونهما الخاص والوثيق أثناء دراستي في هذه المرحلة . فقد بذلا أقصى
جهدهما لتوفير جميع ما أحتاج إليه لمزاولة أعمالي الدراسية وإعداد هذه الرسالة الجامعية . ولم
يدخرأ وسعاً في سبيل التهيئة لي الجو المناسب والتيسيرات ، للقيام بواجباتي نحو الدراسة
وراجابة جميع المقترضات والمطلوبات اللازمة لدراستي في هذه المرحلة . أقدم إليهما
أخلص شكرى وتقديرى لجميع إاحساناتهما ومجهوداتهما التي بذلها اهتماماً وعناية بدراستي .
أعتبر هذا الشكر غير تام ، إن لم أشرك في تقديم الشكر الجزيل إلى الوالدين المحترمين الأستاذة
الدكتورة قيصر جهاً لشفقتها الأمومية التي استفدت منها في جميع المراحل في حياتي
العلمية بعد اتصالي بهذه الجامعة .

قبل أن أختم يجب أن أشكر الجميع الذين قد سوا إلى معاونتهم في الاستفادة من
المكتبة الموجودة في قسم اللغة العربية وآدابها ومكتبة مولانا آزاد والذين استفدت من
مساعداتهم في إعداد هذه الرسالة الجامعية .

عفاف خالد أحسن

الفصل الأول

النشر العربي

مراحل تطور النشر العربي قبل العصر الحديث

الأصل في الكلام أن يكون نشرًا لأنه يعبر عن النفس بوضوح أكثر وكلفة أقل. ويكون بأحدى الصور الآتية: محادثة، خطابة، كتابة. ماذا تتبعنا تطور النشر العربي من بداية تاريخ الأدب العربي نلاحظ أن النشركان موجودا في العصر الجاهلي الذي يبدأ من سنة ٧٢٢م ويمتد إلى سنة ٦٣٢م. لكنه لم يوجد منضبطاً في الكتابة، لذلك لم يصل السائر الاجزء آيسيراً من النشر الجاهلي بالنسبة لما الدينان للشعر الجاهلي. وليست لهذا الجزء القليل الذي وصل إلينا قيمة تاريخية كبيرة ولا قيمة فنية حقيقية، لأن الرواة حرفوا فيه تحريفات أثناء النقل. لا نستطيع أن نعد هذا النشر من الأدب إلا ما قد جرى فيه من أمثال ولا أن نقبضه نشرًا فنيًا. لأن صاحبه لم يقصد به التأشير في نفوس السامعين ولم يقف فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الألفاظ ولا يحتوي على أفكار منظمة.

وقد شغف العرب بالخطابة وضرب الأمثال ورواية القصص التاريخية والخيالية ومن

المميزات العامة لهذا النشر أنه مولود وصادر عن الطبع، يبعد عن الصنعة والتخريف والغلو. إلا ما

يشبه الصنعة مثل السجع والإيقاع الموسيقي المكتسب من المزاوجة في الألفاظ والجميل، ومن
 الفواصل والقوافي السجعية. فالنثر للجاهل هو لغة الشعب في مختلف طبقاته، يسير مع الحياة
 البدوية. ولذلك هو الكلام الحي. ومن خصائصه قوة اللفظ ومتانة التركيب وسطحية الفكرة، ينزع
 نزعة الإيجاز والموسيقى في الجملة والأسلوب، وأفكاره غير مربوطة. استعمل العرب في هذا العهد
 النثر لأغراض مختلفة، فقد كان وسيلة للتفكه والتعليم وللعمل الاجتماعي والسياسي.

عند الفتوحات الإسلامية في العهد الراشدي والأموي (٦٣٢-٨٥٠م) توسع النثر
 ودعم إلى الصنعة مع اقتصاد كثير. بحيث كان الغالب هو الطبع. كان يرى إلى توضيح الفكرة بأيسر عبارة
 وأقرب طريق. تملدة البلاغة في هذا النثر كانت الإيجاز ومن هذه الناحية كان النثر في هذا العصر شديد
 الصلة بالنثر القديم. وأهم أنواع النثر الإيجازي في هذا العهد الخطابة، التوقيعات والرسائل. ثم انتقل
 النثر من الإيجازي إلى التفصيلي. وكان هذا نتيجة امتداد سلطان العرب واستزاجهم بالشعوب الأخرى.
 فقد وسعت الدواوين واستعان العرب في ذلك بالأسم المغلوبة وفي أغلب الأحيان لجأوا إلى غير العرب.
 وسرعان ما نقلت كتابة الدواوين من اللغات الأجنبية (كالفارسية واليونانية والقبطية) إلى العربية. ولم
 يتخل العرب عن الموالي الذين حذقوا اللغة العربية مع حسن تفضلهم في اللغات الأجنبية. فتضافر العرب
 مع هؤلاء الموالي يستعينون بأساليبهم في لغاتهم، ووجه الأداة في تلك اللغات مشمولها في اللغة العربية.
 ومن هنا وجه النثر العربي توجيهاً تفصيلياً. العامل الذي دفع العرب إلى هذا العمل هو احتياج دولتهم
 إلى تفصيل الرسائل وإيضاح العقود. فوسعوا نطاق النثر وصيأوه لكل الأفكار والمعاني في تفصيل أجزائها
 وتربط عناصرها. واتحاد أصولها وتشعب فروعها. ولجميع أنواع التصانيف.

أول من تفوق في الكتابة التفصيلية هو أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ثم تلميذه
 عبد الحميد بن يحيى، فقد قيل، إشارة إلى هذه الحقيقة أن الكتابة بدأها عبد الحميد، «بدئت الكتابة

بعد الحميد^١، قد يكون هو أول من وضع للكتابة الأصول والقواعد وأخذ الكتاب باتباعها.

كانت القدرة على الكتابة العربية الفنية المبتكرة البليغة لازمة لحصول الوظائف في الدواوين

لذلك تدرجت الكتابة على أيديهم في التأنيق وأساليب البيان والصنعة والإطناب. وأولى الظواهر التي ظهرت في النثر في هذا العصر هي الطول في الكتابة، ثم العناية باختيار اللفظ اختياراً لا يخلو من سبالة والعناية بالأسلوب لإيجاد الملازمة بين اللفاظ يتولد منها الترادف الصوتي.

وجد نوعان من الكتابة في هذا العهد: ترسل وتصنيف. من أنواع الترسل الرسائل السياسية ويلحق بها التوقيعات، والرسائل الإخوانية. وأصبحت لفظة «رسالة» في آخر هذا العهد وفيما بعده خصوصاً تطلق أيضاً على أبحاث طويلة في شتى الموضوعات، وليس لها من الرسائل إلا مقدمة موجهة إلى شخص من الأشخاص أو ما يشبه ذلك. ووجهت العناية أيضاً إلى التصنيف لكنه لم يبلغ من الفن ما بلغته الرسائل. ومن موضوعات التصنيف في ذلك العصر التاريخ ومثالب العرب والأمثال والملوك وأخبار الماضين ومحمد وغزواته.

«الأدب الذي ينسب إلى العباسيين هو أدب العباسيين في بغداد، والبويهيين في فارس والحمدانيين في الشام والفاطميين في مصر والمغرب»^٢. وفترة العهد العباسي من سنة ٧٥٠م إلى سنة ١٢٥٨م. استمر النثر العباسي في سيره على فنون آخر العهد الأموي وأساليبه. ونما في ظل الحضارة الجديدة. كان ظهور آثار المدينة العباسية والتفكير العباسي في النثر أكثر منه في الشعر.

نرى الخطابة تضعف في هذا العهد تدريجياً. لأن الدواعي إليها كانت قد ضعفت كما ضعفت القدرة عليها أيضاً. فالرسائل الإدارية، والمنشورات الدولية والمناظرات العلمية والأدبية

١- حنا الفخوري، تاريخ الأدب العربي (المطبعة البولسية) ٣٣٤

٢- أيضاً، ٣٥٩

حلت محل الخطابة ولم يبق للخطابة مجال إلا في المساجد والجموع في المناسبات الدينية . والكتابة اشتملت
موضوعات عديدة بالإضافة إلى اشتغالها على الدواوين . فوجد في كتابة هذا العهد وصف الحضارة الجديدة
بلمحها وترفعها وقصورها ورياضها ، ووصف النفس البشرية بنزعاتها وأهوائها ، ونقد الكتب الأدبية ونشرها
بسيط المسائل العلمية والدينية وروايات القصص والأخبار الخيالية والتاريخية والمفاخرات وغير ذلك .
بعض فنون الكتابة التي وجدت في العهد العباسي هي الرسائل الإخوانية ، والتصانيف

العلمية والأدبية والمقالات والمناظرات والعهود والروايات القصصية والمقامات .

اتسع مجال الفكر في النشر العباسي بسبب ظهور أثر الفلسفة والعلوم فيه . نرى الكتاب يعنون
بربط الأسباب بالمسببات . وأيضاً نرى امتداد القول بتأثير النقل والترجمة إلى وضع الكتب واتباع
الأساليب التصنيفية فيها . كذلك نرى ظهور أثر الآداب الفارسية وترف الحياة العباسية في الكتابة فكان
سيلانها إلى السهولة في العبارة والتأنق في اللفظ والجودة في الوصف ، وإطالة المقدمات وتنويع البدو الختام
والغلو والإكثار من الألقاب والدعاء . وأهم جميع هذه الميزات هو التفصيل والإطناب . ومن نتيجة الأثر
العربي في الكتابة ، كانت الجزالة والمتانة التي لا تخلو من إيجاز أحياناً ، وظهر الإيجاز بنوع خاص في التوقيعات .
نرى أن هذا النشر ينعدر تدريجياً في سبيل التنسيق والزخرفة حتى يصبح مع الأيام مجرد صنعة .

أما تطور النشر العربي في الغرب ، أي في الأندلس ، في العهد العباسي فكان كتطوره في الشرق
العباسي . وتناول من الأغراض والفنون ما عهدناه في الشرق من خطابة وترسل وتصنيف . من النشر بتطوره
هنا بثلاث مراحل : كان في صدر الفتح وأول العهد الأموي مقصوراً على الخطب والرسائل . وعند هبوب
ريح الثقافة على الأندلس نهض النشر نهضة محموددة وشأنيه كتاب مجيدون ومشهورون . وعندما تقلد
المغاربة من الموحدين والمرابطين زمام الحكم في الأندلس بدأ النشر ينزل إلى الخطاط بسبب التصنع اللفظي
المقشيت وبأثر الفتن والحروب .

ثم كان العصر التركي من سنة ١٠٥٨ إلى ١٧٩٨م الذي كان بجملة وبالأعلى الأدب العربي .

بَدَّدت ثَمَانِي المصنفات وأُحرقت المكاتب وشَرَّد رجال العلم على يد المغول في البلاد التي سيطروا عليها
 نَجَتْ مِصر من شَرِّهم كما أَنَّ الشَّام عَادَتْ فَدَخَلَتْ فِي حُكْمِ الْمَمَالِكِ . فَكَانَتَا مَتَانِ الدُّوْلَتَانِ أَرَقَى الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّ
 أَدْبَاءً . لِأَنَّ مَرْقَفَ سَلَاطِينَهُمَا نَحْوَ الرِّعْيَةِ كَانَ أَلْبَنَ مِنْ مَوْقِفِ الْمَغُولِ نَحْوَهَا جَانِباً وَأَكْثَرَ حِمَاةً فِي نَزْعَاتِهَا الدِّينِيَّةِ
 وَاللُّغَوِيَّةِ . لِهَذَا نَجَدْنَا فِي الْقَاهِرَةِ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَأَسْیُوطَ وَالْفَيْيُومِ وَدِمَشْقَ وَحَمَصَ وَحَلَبَ وَحِمَاةَ الْمَكَاتِبِ
 وَالْمَدَارِسِ وَالْمَسَاجِدِ . نَزَحَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَنَشَطَتْ فِيهَا الْحُرُوكَةُ الْأَدَبِيَّةُ ، وَلَكِنْ ضَمِنَ نِطَاقُ التَّقْلِيدِ غَالِباً . وَلَمَّا
 جَاءَ الْعَهْدُ الْعُثْمَانِيُّ صَارَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي أَحْطَى الدَّرَجَاتِ مِنَ الْإِغْطَاظِ لِشُيُوعِ التُّرْكِيَّةِ فِي الْمَخَاطَبَاتِ وَالْمِرَاسِي
 وَالِدَوَادِينِ ، وَتَسَلَّطَ الْغَمُولُ عَلَى الْعُقُولِ ، وَالتَّقْلِيدُ عَلَى الْمَعَانِي وَالصَّنَاعَةُ الْمُقَيَّنَةُ عَلَى الْأَسَالِيبِ . وَيَرْجِعُ
 الْفَضْلُ إِلَى الْأَزْهَرِ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْعَرَبِيِّ فِي أَيَّامِ الْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ .

تَنَادَلَ الْكِتَابُ فِي هَذَا الْعَصْرِ النُّشْرَ الْفَنِّيَّ وَالنُّشْرَ الْعِلْمِيَّ . وَالنُّشْرَ الْفَنِّيَّ فِي هَذَا الْعَهْدِ نَوْعَانِ :
 الْكِتَابَةُ الدِّيَوَانِيَّةُ وَالرِّسَالَةُ الْأَدَبِيَّةُ . رَاعَى الْكِتَابُ شَكْلَ الْأَلْفَاظِ أَكْثَرَ مِنْ جَوْهَرِ الْمَعْنَى . بِالْعَوَا فِي اسْتِعْمَالِ
 التَّوْدِيَةِ وَالتَّقْصِيمِ وَالِاقْتِبَاسِ وَالْجَنَاسِ وَالتَّزْمُونِ السَّجْعَ الْمَحْلَّ . لَمَقْد كَانَ أَسْلُوبُ أَصْحَابِ النُّشْرِ الْعِلْمِيِّ
 أَوْ التَّصْنِيفِ أَقْرَبَ إِلَى الطَّبَعِ وَأَبْعَدَ عَنِ التَّكَلُّفِ وَلَكِنْ الْمَتَأَخِّرِينَ سَهْمٌ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْمَنُوا مِنَ
 التَّعْقِيدِ وَالِإِسْفَافِ ، فَانْطَهَرَ أَنْشَاؤُهُمْ أحياناً إِلَى سَتْوَى النُّشْرِ الْعَامِّيِّ .

مَتَقَدِّمَاتُ النِّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ

الْأَوْضَاعُ السِّيَاسِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ :

نَرَى الْبِلَادَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الرَّابِعِ فِي حَالَةِ التَّشَتُّتِ وَالضَّعْفِ .
 فَصَارَتْ هَذِهِ الدُّوْلُ نَهْبَةً لِنَاهِبٍ يَتَدَاوِلُهَا الْغَزَاةُ وَالْفَاتِحُونَ . انْتَشَرَتْ فِيهَا الْعُنَاصِرُ الْعَجَمِيَّةُ

حتى صار الانتشار مروماً، تضائل دونه العنصر العربي حتى كاد يذوب ويضمحل. كانت الدماء تملأ هذا العصر وكانت الأرزاء تحيط به. فلا تقرعين ولا يهد أطارب هذه الظروف ولا تطمئن نفس إليها ولا يجمع ناظر بالنظر إليها. فالبلاد فريسة للتعريق والتهديم والنساء مردفات والأطفال مقتولون.

شن مغول الفارس غارات على العراق والشام، وأفسدوا في البلاد فساداً أبقتل وتغريب. توالى القضاة على الناس. فما كانوا نسوا ما أصابهم من هول الكوحتى واجهوا الخطب من تيمورلنك. فرجحة فينيقية وفلسطين اقتحموا مصر والشام. واجتهد المماليك في دفعهم عنها. فما لبثوا حتى نشأت بينهم الاختلافات على المال والسلطان فتعاربوا فيما بينهم وتذابحوا وتفانوا. وكان الكرج والأرمن يتسللون من الشمال مغيرين عاشرين ثم يعودون بالسبايا والغنائم.

أما جزيرة العرب والمغرب فقد كانت دول صغيرة متخاصمة ومتعاربة فيما بينها، تنازعها. لهذا لم يطمئن عرش بوحدة إلا اثقل إلى غيرهما. دخلت مرايع الأندلس من المسلمين بعد أن شردهم الفرنجية عنها.

كانت مصر والشام قبل استيلاء بني عثمان عليها سبابة العلماء والأدباء الهاربين من وجه المغول، أو من وجه الفرنجية في الأندلس. والسبب في ذلك هو أن المماليك عطفوا على اللغة العربية وقربوا أصحابها تشبهاً بالأيوبيين. لكنهم كانوا ضعيفين فيها، وهذا ما جعلهم يؤثرون الأتراك العامة على الشعراء الفصيح، فصارت الغلبة للقوالين على الشعراء وللعامية على الفصحى. بقيت بالشام فضلة من الأيوبيين الذين عطفوا على اللغة وآدابها أذكروهم على سبيل المثال الملك المؤيد صاحب حماة وهو الكاتب المؤرخ المعروف بأبي الفداء. ولكن ضعف سلطانهم بالإضافة إلى سلطان المماليك المنبسط على القطرين معاً جعل تأثيرهم أضعف من تأثير المماليك.

يمتد تاريخ الدولة العثمانية من القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين حين زالت هذه

الاسبراطورية في الحرب العالمية الأولى. تبدأ مرحلة بناء الدولة العثمانية وتوسعها في أوروبا من أوائل القرن الرابع عشر (عهد عثمان) حتى أوائل عهد سليم الأول في أوائل القرن السادس عشر. في هذا الوقت توقف الاتجاه العثماني في أوروبا واتجهت الدولة نحو الشرق وبدأت فتوحاتها في الشرق العربي. كانت هذه الفتوحات من الشرق الأدنى وحدة سياسية خاضعة للنفوذ العثماني من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين. "يدخل في نطاق هذه الوحدة السياسية الكبرى شبه جزيرة الأناضول والعراق والشام ومصر والمجاز واليمن وبعض النفوذ على الساحل الشرقي لأفريقية". وكان الشرق الأدنى قبيل دخول العثمانيين مباشرة مقسماً إلى قسمين كبيرين :

(أ) القسم الغربي الذي يشمل على إيران والعراق وهذا القسم هو الذي تلقى الإغارات المغولية الأولى وواجه الكثير من الحزب والفضى والاضطراب.

(ب) القسم الشرقي وهو يشمل على مصر والشام وهذا القسم نجاة من هذه الإغارات بفضل الدول المملوكية.

وفي مطلع القرن السابع للهجرة، شهدت آسيا الصغرى دولة ملية فتية ترث ملك السلاجقة المعظم، وتقيم على أنقاضه عرشاً تركياً لبني عثمان ثم لا تلبث أن تنمو وترعرع ويشهد ساعدها فتغزو ويتسع ملكها فتوغل في بلاد الروم حتى تمتدح السلطنة بين سنة ٨٥٢ هـ (١٤٥٣ م) وتجعلها عاصمة لها.

ثم يقوم أسد سلاطينها سليم الأول، فيولي وجهه شطر الشرق فيغزوه سنة ٩٠٢ هـ (١٥١٦ م) ويستزع سورية ومصر من أيدي المماليك الشركاسة، ويضع التوكل على الله الخليفة العباسي، يأخذ منه الراية والبردة

والسيف وساتج المهرين . فتنتقل الخلافة للمرة الأولى من العرب بل من قرطش إلى الأتراث .
ثم يمتد سلطان العثمانيين إلى سائر البلاد العربية كالعراق والحجاز واليمن وتونس والمجزائر ،
ويستعمل عليها ولادة من الأتراث .^١

تاريخ الحكم العثماني في الشرق الأدنى ينقسم إلى عصرين :

١- العصر العثماني الأول الذي يبدأ من الفتح العثماني وينتهي بنهاية القرن الثامن عشر .

٢- الثاني وهذا العصر يشتمل على القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

العصر الأول هو تاريخ الأنظمة العثمانية وما أصابها من تدهور وعباس فلاس والهزات التي حدثت في الشرق العربي نتيجة لهذا التدهور . والعصر الثاني يشتمل على الاتجاهات الجديدة التي كان قوامها على أنقاض الأنظمة العثمانية . كان انبعاش هذه الاتجاهات أساساً من الولايات الإسلامية الداخلة في نطاق وحدة الشرق الأوسط مثل ظهور حركة محمد علي في مصر والحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر أو الاتجاهات القومية العربية أو التركية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما من خارج الشرق الأدنى كالأستعمار الغربي .

أهم نتائج الفتح العثماني للشرق العربي :

١- تكونت في الشرق الأوسط وحدة سياسية بعد التفكك الذي أصابه بسقوط الدولة العباسية حوالي منتصف القرن الثالث عشر وهي الوحدة التي اعتبرت نقطة البداية في تاريخ الشرق الأدنى الحديث . كانت هذه الوحدة رأكدة ومنعزلة فلم يكن الشرق الأدنى في هذا العصر محور النشاط العالمي في السياسة أو الاقتصاد ولم يكن متصلاً بالأحداث العالمية ، ولكنه دخل في عزلة سياسية واقتصادية وفكرية استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر وكانت حياته سائرة سوافقة لأحداث محلية خاصة به . كان من أثر هذه الوحدة على مناطق الشرق الأدنى أنها اكتسبت نوعاً من الاستقرار النسبي كان في أشد الحاجة إليه

١- بطرس البستاني : أدب العرب في الأندلس وعصر الانبعاش ، حياتهم ، آثارهم ، نقد آثارهم (بيروت ١٩٦٨) ص ٢٩٩ .

منذ القرن الثاني عشر.

٢- الفتح العثماني كان عاملاً ساعداً في إنقاذ العالم السفلي في آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق إلى حد ما من السيطرة الشيعية التي انحصرت داخل إيران وحدها.

٣- أنقذ الشرق العربي من الخطر الأوربي لأنه استطاع أن يوقف توغل النفوذ البرتغالي في البحار العربية. نجد أن طوار الشرق العربي على نفسه بعد الحروب الصليبية لمدة غير قصيرة وإغلاقه على نفسه وإغلاقاً تاماً يكاد يكون شاملاً، فلم يكن هناك إلا فقرًا وانحداراً معنوياً. كان الغرب في القرن الخامس عشر والسادس عشر يرفع أساس نهضته في مجالات مختلفة مثل العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد. تغيرت حياته من أثرها تغيراً تاماً وسارت بفضلها في طريق الرقي والتقدم بخطى سريعة. وكان الشرق منعزلاً عن كل هذا تماماً فلم يصل إليه شيء منها ولم يكن له شعور بها. فاستمر في حالته المغلقة. بحيث يقلد حياة الشرق السابقة من غير روح وأصبحت الثقافة القديمة أساس حياته بعد أن صارت هذه الثقافة تماثيل. وكان من العوامل المساعدة على تأكيد هذه العزلة هو الشعور الذي كان يوجد في البلاد الإسلامية تجاه الفرنجة وكل ما هو أوربي. وهو شعور الشك والارتياب الذي نما واستقر بآبان الحروب الصليبية.

كان يسود هذا العصر الهول والذعر والفساد من جميع النواحي. كان عصر تحزيب المدارس وتقتيل العلماء وتحريق المكتبات، عصر المحن والحروب المتوالية وتفاقم العناصر العجمية واستبدادها بالأحكام. لم يعن المماليك في إرهاب العرب إلا ليوطئوا العقاب للعثمانيين، فيعمدوا إلى بذل الشقاق في الطوائف خشاة أن يتواطئوا على شق عصا الطاعة. لهذا السبب اتسرفت المظالم وارتكبت المحرمات، أحل القتل والترويع، اتخذت السعيات والدسائس مكاناً من المجتمع، أصبحت الأفكار مستعبدة والأقلام محطمة وحرية الفرد والجماعة منخوقة. هان العرب وتفرقت كلمتهم. كان هذا العصر أسوأ العصور عليهم في هذه الظروف التي كانت البلاد تواجهها، لم يكن هناك في البيئة ما يساعد على النهوض

فكانت الحاجة لمحة إلى نور غريب خارجي ينير الأذهان ويرفعها إلى مستوى المبادئ الفكرية والأدبية العالمية. من اتصال الشرق بالغرب استنبثق النهضة التي ستسير أشراقاً في العالم العربي وتهيئ العقول سبيلاً إلى رقي واسع في مجالات الفكر والثقافة والأدب. فالشرق أناد أودبا في عصورها المظلمة واستعان به في دور انحطاطه لإقامة صرح نهضة. اتصلت لبنان بالغرب قبل سائر البلاد العربية لكن هذا الاتصال لم يكن مظهرًا من مظاهر النهضة الحديثة، بل تعتبر عاملاً من أقوى عوامل تلك النهضة وواحد من مقدماتها الكبرى، ومن أهم مهيئاتها الفعالة.

احتفظ العثمانيون بالبناء الاجتماعي الذي كان سائداً قبل دخولهم الشرق الأدنى. ساعد هذا العامل على انعزال الطبقة الحاكمة عن الجماهير المحكومة. انتقلت الفكرة الطائفية لتنظيم اجتماعي من طوائف أصحاب الحرف والتجار وشملت الآخرين من أفراد المجتمع. وأصبح نظام الطوائف هذا تنظيمًا اجتماعيًا بحيث تسيطر عليه جميع فئات المجتمع. فجميع الناس ينظرون أنفسهم في شكل طائفة على أساس مهنة أو عمل أو مذهب ديني مشترك بينهم من أجل رعاية مصالحهم الذاتية. فكان الطائفية يمثل أهم ظاهرة في حياة مجتمع المدينة في الشرق الأدنى. وأتاح لكل فرد وضعاً اجتماعياً معيناً الذي أتاح له بالتالي فرصة للعمل والنشاط دون تدخل من الهيئة الحاكمة. نظام الحكم العثماني في الشرق الأوسط كان عملياً للغاية بصفة عامة. قبلت هذه الدولة التقسيم الشائع في المجتمعات الإسلامية إلى طبقات: رجال السيف، رجال العلم، والتجار وأصحاب الحرف، أهل الذمة والعبيد. قد ساعد الحكم العثماني على تقوية الحياة الدينية لسكان الشرق الأوسط. فكان أصحاب هذا الحكم يتمسكون بأحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها أساساً لحكمها. ثم أيضاً وجدت القوانين الوضعية التي كانت تتعلق بالتفاصيل دون المبادئ.

المجتمعات في الشرق الأدنى كانت على قرب الانهيار قبل دخول العثمانيين

بإشورة. إلا أن دخولهم أسهل هذا الانهيار. سیر العثمانيين على نظام ضرابي مخفف أنقذ

النجاحين والتمار وبسط حالة من الأمن والاستقرار استمر عليها الشرق الأدنى حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر عند ما بدأ الحكم العثماني نفسه يعمل على عودة هذه الفوضى السياسية وهذا الانهيار الاقتصادي. لقد انهار نظم الحكم العثماني في الشرق العربي في القرن الثامن عشر عند احتلال التوازن الذي كانت تقصده قوانين السلطان بين السلطة المركزية ممثلة في الباشا من ناحية والحاميات العثمانية والعصبيات المحلية من ناحية أخرى. بسبب هذا الخلل ازداد تمرد القبائل في الولايات العربية ومبائل الأكراد في شمال العراق. فقد ظهرت طغيان سلطة هذه الحاميات العسكرية الكادحة للنظام والمفوض للرقابة المالية وأخذت تعمل على زيادة نفسيها في الإدارة. كان الباب العالي خائفاً من هذه الأوضاع، متردداً بين انتعاج سياسته التقليدية في تغيير الباشوات العثمانيين بالنظام وبين تثبيت الباشوات، على الأقل، الذين أثبتوا قدرة في إخضاع حركات التمرد. ونرى أن الباب العالي اضطر إلى تثبيت الكثير من الباشوات. وكانت نتيجة هذا الأمر أن تكونت أسرحاكمة في هذه الولايات تتبادل الحكم فيما بينها مثل حكم الماليك في العراق أو آل العظم في الشام.

استاز الحكم العثماني في الشرق الأدنى بالرجعية. كانوا يميلون، في النظم الحكومية، إلى الإبقاء على الحالة التي كانت عليها قبل الفتح العثماني. فلم يكونوا يرحبوا كثيراً بأي تجديد في نظم الحكم السائدة وهذه الحقيقة جعلت يد محتل الدولة شلولة.

انقسم الناس إلى عصبية وأحزاب متنافرة ما جعلهم يرحبون بفكرة العنف والبطش واتخذوها كميزة من ميزات الحكم. فيتمكنون بذلك من إلحاق الأذى بالعصبية المعادية لهم في حالة وصولهم إلى السلطة أو أي نوع من النفوذ الحكومي. لعبت روح العصبية هذه دوراً هاماً ومثلت ظاهرة هامة جداً في حياة الجماعات الإسلامية الاجتماعية في الشرق الأدنى وألحقت أكبر الضرر بحياة الناس. مثلت هذه الروح أقوى العوامل المشكلة لحياة الإنسان الاجتماعية في العصر العثماني الأول. هكذا انفتح

الطريق واسعاً لتكن وتشجع المحسوبية والرشوة وبيع الوظائف الإدارية بل حتى القضائية والدينية في المجتمع حتى اعتبرها الحكام والمحكومين أموراً طبيعية على السواء.

أهم أسباب الضعف في الإدارة العثمانية تمثل في تصور العثمانيين لمهمة الدولة. هذا التصور الخاطئ الذي يفتقر إلى الإحساس بهذه الحقيقة الصائبة بأن وظيفة الدولة هي العمل على رفاهية المحكومين.

تعتبر هذه المسألة المسئول الأول عن الانهيار الاقتصادي والفساد السياسية التي كانت تواجهها مجتمعات الشرق الأدنى في القرن الثامن عشر، وفي مصر بالذات. من العوامل الأخرى المسؤولة عن ضياع حكم العثمانيين في الشرق الأدنى فهمهم لتكوين المجتمع. فالمجتمع في نظرهم ينقسم إلى قسمين: الحكام الأتراك والمحكومين الرعية. وجعلوا مهمة المحكومين أن يقوموا بخدمة الحكام ويمدوهم بما يحتاجون إليه. كأنهم كانوا داخل المجتمعات استقراطية حاملة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذايتها. وهذا جعل الحكم العثماني عديم التأثير في حياة الشرق الأوسط. وتمكنت مجتمعات الشرق الأدنى في التأثير على الأتراك بصبغتها القومية.

نظام الحكم العثماني غير مباشر، فالسلاطين لا يصرون على طاعة صارمة من جانب حكام هذه الولايات ماداموا يتبعون أسس الحكم بالذات مسألة الخزنة. تاريخ الشرق الأوسط من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر يدل على أن السلطات العثمانية أو رعية الدولة كانت لا تعتقد بالمكانية انفصال هذه الولايات نهائياً عن السلطنة. باستثناء أسرة المماليك في العراق.

ظاهرة دخلت في الحياة السياسية في الشرق العربي في أواخر القرن الثامن عشر صاحبة لتدهور الحكم العثماني، هي ظهور شبح الاستعمار الغربي. وقد بدا هذا الأمر واضحاً في المفاوضات التي دارت بين علي بك الكبير وقيادة الأسطول الروسي وأيضاً في تحالف ظاهر العمر مع الأسطول الروسي. هذا

أسر يد على عزلة الدولة العثمانية عن العالم الخارجى . وأن يأتى عليها وقت آجلاً أو عاجلاً ستواجه فيه غزواً استعمارياً من الخارج . ومن ناحية أخرى نرى ظهور الحركات الوطنية فى نفس الوقت . هاتان الظاهرتان شكلتا تيارات جديدة فى حياة الشرق العربى .

الاعتقاد بأن هذه القوى الجديدة ظهرت كرد فعل مباشر لتدهور الحكم العثمانى فى الشرق العربى ليس صحيحاً . لأن الزحف الاستعمارى الأوروبى مرتبط بتطور الرأسمالية فى غرب أوروبا وانعكاساً وأثرات هذا التطور فى العالم الخارجى الذى يشمل الشرق العربى أيضاً . وبالحركات الوطنية ، حيث كانت مرتبطة فى ظهورها بعوامل موضوعية ، يلزم توفرها فى مناطق ظهور هذه الحركات ولا تنبثق أصلاً من انهيار الدولة الأجنبية المسيطرة . ولكن هذا لا يعنى أن ضعف الحكم العثمانى فى هذه المنطقة لم يؤثر شيئاً على تطور هذه القوى . فقد كان له أثره فى تطور هذه القوى التى أصبحت تدريجياً وطوال القرن التاسع عشر العوامل المؤثرة فى ما قدّر لمجتمعات الشرق العربى فى الوقت الذى كان التأثير العثمانى يسير فيه إلى الاختفاء .

الأدب والنثر:

إنشاء المترسلين فى العصر العباسى الثالث كان مصطبغاً بألوان الشعر . نجد فيه ميزات الشعر مثل غلبة الخيال والمجاز عليه وقيام سجعاته مقام القوافى . فلم ينفقه شئ غير الأوزان . والنثر فى قالب الشعر ، ضائقة أغراضه ، معدودة موضوعاته ، غير صالح إلا للأمور التى يطفو عليها الخيال الشعرى كالومف والرسائل ومقدمات الكتب والمقامات وما أشبه ذلك . ولا يخضع للمباحث العلمية والأدبية والتاريخية إلا على كره منها ونفار . والأسلوب الشعرى المنمق لا يقدر عليه إلا كاتب بليغ . وكان الكتاب العباسيون نابغين على البلاغة وحسن البيان ، فساروا بهذا الأسلوب إلى أعلى منازلهم ونافسوا به النثر الفنى المرسل . ولكن هذه البلاغة تداعت فى أواخر العصر الماضى ، فنجت ضامة

الترسلين وثقلت ألفاظهم وصارت مصنفاتها قبيحة، ثم وفى هذا العصر، فاستندى الكتاب طريقة القاضى الفاضل من التزام التورية والسجع والجناس. لأنهم أرادوا أن يخفوا عجزهم عن توليد المعاني واختراعها فى صناعة الألفاظ، ولكن لم تكتب لهم استقامة الأمر فيما حاولوا. كان القضاء صدر الدولة العثمانية وسيادة التركية فى الدواوين، وغلبة العامية على الفصحى، حتى نطقت البلاغة بنفسها. وقد أكتاب القدرة على الإفصاح عما فى ضمائرهم، وعلى الصناعة، فسدت لغتهم، أكثروا من الحشو والكلام الطاغى، تكلفوا السجع على ضعفهم، فكان سقيفاً.

ما عمت الصناعة اللغوية فن التصنيف كما عمت فن التوسل. لبث طائفة من المصنفين يقصدون إلى الأسلوب المرسل فأحسنوا فى هذا. لكن ملكتهم البلاغية لم تعمل ملكة أسلافهم، فلم يخلصوا إنشاءهم من التعقيد والتطويل. ثم دب الفساد فى لغتهم بمادب اللغة الترسلين وكاد النثر أن يكون عامياً. كقصص بنى هلال، وتاريخ ابن إياس وما شاكل ذلك. مصيبة النثر أعظم وأعم من مصيبة الشعر فى هذا العصر. والسبب فى ذلك يرجع إلى عدد المتطفلين عليه، فهم أكثر عددًا من المتطفلين على الشعر. والكتابة فى إنشاء الترسلين أشد منها فى إنشاء المصنفين.

كان الأدب مرآة لحالة الأمة فى ذلك الوقت، تتراءى فيه حياة الأمة التى ساء حالها

الاقتصادى والسياسى.

على الجملة، نستطيع القول، أن اللغة العربية لم تنحدر فى عهد المماليك لانحدارها فى عهد بنى عثمان وذلك بفضل أسباب منها أن وطن المماليك كان عربياً. ووطن دولة العثمانيين عجمي. كان المماليك جاهلين لا يعرفون إلا السيف والحرب، فلم يملكوا الاستغناء فى تنظيم دولتهم عن علوم العرب وآدابهم، فأكثروا المدارس فى مصر والشام، وعملوا على تقريب العلماء ليوافقوا لهم، ويتولوا أمور دواوينهم. والعثمانيون كانوا فى جهلهم وخشونتهم للمماليك، لكنهم تحضروا بعد فتح القسطنطينية واتخذوا قاعدة لملكهم. فسبح عن ذلك أن تحضرت لغتهم شيئاً فشيئاً بما أمدت من العربية والفارسية واللغات

الأوربية. فأصبحت صالحة للعلوم والآداب، فأعرضوا عن اللغة العربية، وكانوا قد اعتمدوا عليها فترة من الزمن، فجعلوا التركية لغة رسمية في جميع الولايات العثمانية. ولم يستثنوا الولايات التي تعمرها العناصر العربية. كان الحكام الأتراك يحكمون على هذه الولايات، فيرفعون شأن لغتهم، ويدفعون العرب إلى تعلمها لتتريكهم. وليجعلوا عصبيتهم ضعيفة. "فهبطت اللغة في عهدهم هبوطاً مشؤوماً، ففسدت ملكة البلاغة، وتصلبت أذهان الأدباء، ودان عليهم خدر الجمول لا يستفيقون منه إلا على مدافع نابليون في مصر، ونواقيس الأديار في شعاف لبنان".

الحكم العثماني في مصر قبل النهضة:

انتقلت الخلافة في مصر إلى آل عثمان بعد وفاة آخر الخلفاء العباسيين فيها سنة ١٥١٧م أو بعد سقوطها في يد العثمانيين سنة ١٥١٧م واستمرت فيهم حتى سنة ١٩٢٢م رغم أن السلطنة سقطت في سنة ١٩٢٢م وحلت محلها الجمهورية التركية الحديثة وصفت أملاث الدولة العثمانية في معاهدات الصلح.

نستنبج من دراسة سريعة للحكم العثماني في عصره الأول في الشرق الأوسط في سوريا ومصر بالذات أن مصيبة الانهيار الاقتصادي في مصر جاءت نتيجة لاستبدال نظام الأوجاقات بوضعها القديم بحيش من المرتزقة. تقع مسئولية فرض الضرائب والمخارم والشطط في جميع الضرائب التي يمتلئ بها تاريخ مصر والنشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على إنشاء هذه الجيوش المرتزقة لا على بذخ البشوات العثمانية والبكوات المماليك.

الاستكاد الاقتصادي وإنشاء قوات عسكرية كبيرة والاستعانة بالجنود الأوربيين ومحاولة

التخلص من السلطات العثمانية وبسط السيطرة المصرية على المقاطعات المجاورة وبالذات في الشام وبلاد العرب،
 جميع هذه الاتجاهات والعوامل لعبت دوراً كبيراً في دولة محمد علي في مصر في القرن التاسع عشر، كانت
 واضحة تماماً في الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر في حركات رجال مثل علي بك الكبير والشيخ ظاهر
 العمر وأحمد الجزار. علي بك وظاهر العمر حلا راية العصيان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.
 وقد نجح في البداية لأن الدولة كانت مشغولة في حربها مع روسيا، ثم استطاعت استرجاع نفوذها في سوديا
 ومصر دون عناء كبير أو تضحية تذكر.

أحد الرحالة الفرنسي الذي زار مصر في أواخر القرن الثامن عشر فولتي يقول في وصف حال
 مصر في ذلك الوقت: "البحر عام، وهم يتناول كل الطبقات ويتجلى في كل العوامل الأدبية والطبيعية
 وفي الفنون الجميلة، وحتى الصنائع اليدوية، فإنها في أبسط أحوالها". وقد دهش من سرور ما رأى. فقد
 بلغت مصر غاية الانحطاط في أحوالها الاجتماعية والسياسية والعلمية.

الأزهر:

من المعروف أن مصر أسهمت مساهمة كبيرة في الحضارة الإسلامية في أثناء
 العصرين الفاطمي والأيوبي، قبل الحكم العثماني. وفي أثناء عصر المماليك كانت هي الوحيدة التي نهضت
 بتلك الحضارة، واتخذت لذلك طريقاً وانحازت أن تجمع التراث الإسلامي العربي وتضعه من جديد
 في كتب كبرى تشبه دائرة المعارف، مثل صبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري ولسان العرب
 لابن المنظور.

كانت مصر مشغولة بجمع التراث العربي والمحافظة عليه عند ما نزلت بها نكبة

العثمانيين، فتؤثر على هذه الجهود العقلية المنهية تأثيراً شديداً، تمسيها بطل شديد، يتوقف في مصر كل شيء. يعم العمى والجمود، ولا تبقى النهضة الذهنية إلا شيئاً ضئيلاً جداً في شكل متون وملخصات، يبدئ فيها الأزهريون ويعيدون، ليس في استطاعتهم إلا أن يشرحوها وقد يشرحون الشرح، وقد يعلقون عليه. فنرى أن العلم لا يضاف إليه شيء ذو خطر، بل عُقد تعقيداً. لأنهم أكثر المتون والشرح والتقريرات والتعليقات، محشدة وفيه عقد أو ألعازاً. كانت النتيجة أن تحولت العبارات نفسها إلى أحاج معلقة، وأصبح هم وسعى العلماء أن يحلوا هذه الأحاجي، وحلها لا يضيف علماً، وإنما يضيف فساداً لغوياً. هكذا بعدوا وانقطعوا عن الكتب العلمية الأولى المؤلفة في العصر العباسي، بل أيضاً عن الكتب التي ألقت في العصر القريب منهم، أي عصر المماليك. فنصار الذين يعرفون شيئاً عن كتب الأئمة مثل الشافعي أو الفلاسفة مثل الفارابي أو المفكرين الاجتماعيين مثل ابن خلدون وتلحين. لم تعد العلوم شيئاً سوى متون مثل متن المنهج للشيخ زكريا الأنصاري الذي يجمع كل مسائل الفقه الشافعي. والأزهريون كانوا إلى عصر قريب من العصر الحاضر يحفظون مجموع المتون، وهذا مجموع يحصى كل أنواع العلم العربي ويحوله إلى جمل مبهم في شعر أو نثر للحفظ والتسميع. فاختصر العلم العربي اعتماداً شديداً، أصبح لا يتجاوز منجات معدودة بعد أن كان يملأ المجلدات الضخمة. ولم تكن العلوم الدينية أفضل حالاً. فهذه أيضاً كانت قد تخاذلت وتضاءلت تحت ظلم العثمانيين على أهل مصر. وكانت العناية في الأزهري بالعلوم الطبية والفلسفية ضعيفة أيضاً.

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره، فقد كان الأزهري هو الذي حافظ على التراث الإسلامي والعربي أيام الحكم العثماني وأيام المصحة به. فقد أغلقت المدارس المختلفة التي أنشأها الأيوبيون والمماليك. ولم ينبعث ضوء إلا من هذه المصاييح، المصاييح الضئيلة التي كانت في الأزهري ولم ترسل إلا نوراً خافتاً شاحباً.

الأحداث المؤثرة في العصر الحديث

دراسة الأدب لأي أمة من الأمم تحتاج إلى معرفة الأحداث الكبرى التي أثرت في حياة عصر هذا الأدب. لأن الأدب مرآة ناصعة صافية لحياة عصره. ولذلك لا بد من ذكر الأحداث المؤثرة في العصر الحديث قبل التحدث عن موضوع النثر العربي الحديث.

حملة نابليون بونابرت على مصر:

هدم التورق الحضارة الإسلامية التي وجدت في مصر والشام منذ غزوات اتتار الشرق العربي وغزوات المسيحيين الشماليين للأندلس بفتحها في القرن السادس عشر. فانهارت الحياة العقلية والأدبية في مصر. ولم يكن عندهم نظام في الحكم والسياسة وبلغوا إلى أقصى درجة من الهوان والفساد. وفي هذا العصر قد رأوا أن تعيش حياة عقلية وأدبية نشيطة، اشتملت على مناحي الفكر الإنساني جميعه من علم وفلسفة وأدب. في هذه الحالة كان اقتحام الحملة الفرنسية لمصر في سنة ١٧٩٨ م. لعل هذه الحملة أهم الأحداث التي يجب الرجوع إليها للتحدث عن الأدب المصري منذ القرن الماضي. مكثت هذه الحملة نحو ثلاث سنوات كانت جميعها جهاداً عنيفاً بين الوطنيين والمعتدين. لم ينتفع نابليون من إنشاء مجالس شورى سميت باسم الدواوين، ألفها من طبقة الأزهريين المثقفين ومن كبار الأعيان والتجار، وأعطاهم حق البحث في بعض شئون الحكم، وخاصة الضرائب.

هذه المدة القصيرة لم تكف للتأثير بالحضارة الأوروبية على المصريين. وذلك للفوارق

الواسعة بين حضارة العرب وحضارة الغرب. لكن هذا لا يعنى أن المصريين لم يتأثروا شيئاً بهذه الصلة. فأتجهوا إلى أوروبا وحاولوا الاستفادة منها في الحياة العقلية والأدبية، وفي نفس الوقت رغب محمد على في إعداد جيش على نمط الجيوش الأوروبية للدول الكبرى. ورأى ضرورة إنشاء المدارس واستقدام الأساتذة الأوروبيين ليؤدى هذا العمل أداءً حسناً، فأنشأ المدرسة الحربية وأنشأ لها معاهد صناعية وطبية وأسس مدارس ابتدائية وثانوية.

فالآن وجد في مصر نوعان من الحياة العقلية: أحدهما تقليدى محافظ في الأزهر هو الذى يحفظ مجموع المتنون. فيه قصور وجفاف. وآخر مدنى أوروبى الذى يعتمد على الحضارة الأوروبية والعلم الأوروبى لم يسبق للمصريين علمه. هنا نلاحظ انتقال الحياة العلمية الأوروبية وما يتصل بها من حياة علمية وفنية تطبيقية إلى المصريين بواسطة هذا التعليم اللدنى، وعدم انتقال الحياة الأدبية الأوروبية بواسطة طوائف النصف الأول من القرن للناضى لأن والى مصر لم يعن بها. فلم يتأثر الأدب شيئاً. وقد يرجع سبب ذلك إلى أن العلم سهل نقله ونقل قوانينه وقضاياها. والأدب صعب نقله. ولا تسهل الاستفادة منه لأمة إلا إذا وضحت بينها وبين الأمم التى تنقل عنها علامات أدبية تساعد على التمتع وعلى تبادل آدابها، التى تعبر عن روحها وبيئتها ومزاجها وذوقها. لأن الآداب تضع لجميع هذه العناصر خضوعاً شديداً.

اهتم محمد على منذ سنة ١٨٢٦م بإرسال البعثات الكبيرة. هكذا اختلقت جماعة من الشباب المصرى وعلى رأسها رفاة الطمطاوى بالحياة الغربية، وبدأت هناك القراءة في الأدب والتفكير وتبغى اللذة الفنية الخالصة. لما عاد رفاة من البعثة شارك في حركة الترجمة العلمية التى الباعث وراءها الضرورة المدرسية، ليعلم المصريون العلم الأوروبى. ثم أنشأ محمد على مدرسة الألسن من أجل خدمة هذه الحاجة وعين رفاة ناظراً لها. ثم تأسس قلم للترجمة سنة ١٨٤٩ وكما رفاة رئيساً له.

كل ما ذكره خدم التيار العلمى الغربى ولم تعط البحوث الثمرة المرجوة فى ميادين الأدب. ظلت مصر طوال النصف الأول من القرن الماضى وطوال عصر سعيد لا تهتم إلا بالعلم الأوروبى فى الدراسة وفى الترجمة.

فى عصر اسماعيل سارعت مصر نحو الاستزاج بالحضارة الأوربية، فاطلب كل شىء بهذه الحضارة صبغة حقيقية. نجد فى مصر نظاماً نيابياً قضائياً، يشبه النظام الفرنسى. هذا من ناحية السياسة والتشريع. وفى مجال التعليم نرى نشأة المدارس العالية المختلفة وتأسيس كثير من المدارس الثانوية والابتدائية. وأيضاً تأسست مدرسة البنات، فصار التعليم غاية لنفسه، تقصده خدمة الشعب، لخدمة الجيش. أسست الأوبرا وأنشأ يعقوب صنوع فرقة تمثيلية كان يترجم بها، ويؤلف تمثيليات منستلعة. ولو أنها كانت بالعامة فهى تدل على لمهور تغيرات فى مصر، وعلى أنها بدأت دورة حضارية جديدة.

تأثر الشعب المصرى بالحملة الفرنسية من نواحى أخرى أيضاً منها أنه اطلع المصريون بسببها على بعض وجوه الحياة الأوربية. رأوا حياتهم المادية فى الأكل والشرب وفى اللهو وفى حفلات التمثيل والغناء والرقص والموسيقى ولم يألفوه هذه الصور. التفت المصريون إلى تقدم الغربيين فى العلم. قدمت جماعة من العلماء البارعين المتخصصين فى العلوم المختلفة من التاريخ والطبيعة والرياضية مع نابليون. وأسس نابليون المجمع العلمى المصرى على غلط المجمع العلمى الفرنسى عند نزوله فى مصر. كما أنشأ بجانب هذا المجمع العلمى معامل ومكتبة ومطبعة. كان البحث العلمى التجريبى يجرى فى المعامل. والفرنسيون كانوا يستدعون المصريين لرؤية التجارب الكيميائية التى كانوا يجرؤونها ولم يعرفها المصريون. فنجذبون وينبهرون. طبعاً كان هذا يدعو المصريين إلى أن يفكروا فى علمهم النظرى وأن وراءه علماء فى الغرب يجب الوقوف عليه. المطبعة التى جلبها نابليون معه

والى بلد المصريين كانت جديدة عليهم كانت تطبع بالحروف العربية منشوراته وبعض الصحف الدورية بل أيضاً كانت تطبع بعض الكتب.

كان من نتيجة المقاومة للحملة الفرنسية نشأة الشعور القومى فى نفوس المصريين بحقوقهم المشروعة فى حكم بلادهم. عندا انقلاع الحملة عن وطنهم عادوا الى حكم العثمانيين ورأوا أن من حقهم اختيار الوالى الجديد، فاختاروا محمد على. وطنوا بذلك أنهم يريدون تاريخاً جديداً لكأمة متحررة ومجاهدة. لكن محمد على قضى على آمال المصريين فى استراكتهم فى حكم أنفسهم. عمل نابلون على إقامة مجموعة من الدواوين وسلبها حقوقها. فانبعث آمال المصريين فى اتجاه آخر بسبب عناية محمد على بالجيش وما وفر من أجل ذلك لشعبه. العلماء الذين جاءوا مع نابلون درسوا مصر من جميع أحيائها، كانت ثمرة ذلك تسعة مجلدات بعنوان "وصف مصر" طبعت فى فرنسا (١٨٠٩-١٨٢٥ م).

فتح قناة السويس:

فتحت قناة السويس فى عهد اسماعيل. كانت لهذا الحادث أهميته حيث كان له آثاراً عملية واضحة. زاد إقبال الأوروبيين على مصر وذهب المصريين إلى أوروبا. رفعت الحواجز الفاصلة بين الحياتين المتقابلتين. هكذا كانت القناة عاملاً فى تقريب المسافات المادية والمعنوية بين الشرق والغرب. فتقاربت الاتجاهات الفكرية والحضارية بين الاثنين العربية الشرقية والغربية. أثر هذا الفتح فى العلاقات العقلية على اختلاف أنواعها سواء فيما يتصل بالمصريين أو بالأوروبيين بعضهم ببعض. وهذا بسبب كون العلاقات العقلية والمادية متفاعلة. أثر الفتح أيضاً فى العلاقات بين الدول ونتج عن ذلك احتلال الإنجليز لمصر فيما بعد.

أنشأ إسماعيل مجلس الوزراء ومجلساً نيابياً، ووضع قوانين كثيرة على النمط الأوروبي. وفي عصره نرى نمو النزعة القومية. كان الشعب المصري في عصر محمد علي وعباس يستغل لمجد محمد علي وأسرته وبطانته من الترت. كان محمد علي ألبانياً، لكنه صبغ نفسه بالصبغة التركية وكذلك اصطبغت أسرته. وخير ما يدل على هذا هو مسجده الذي بناه على طراز مساجد الآستانة. ومطبعة بولاق التي أنشأها عملت في أكثر الأمور على طبع الكتب التركية. كان يصدر "الوقائع المصرية" بالعربية والتركية. أما أساليبه الإدارية فكانت تركية خالصة.

لما ولي سعيد ومن بعده إسماعيل أخذ ينمو طموح المصريين لحكم أنفسهم وساعد على هذا دخول أبناء الفلاحين في الجيش ووصول بعض منهم إلى المناصب الكبيرة في الإدارة المدنية مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ومحمود الفلكي.

زيادة جمال الدين الأفغاني لمصر:

في سنة ١٨٧١م زار مصر جمال الدين الأفغاني وقضى فيها نحو ثمان سنوات. قام خلالها بدعوته المشهورة إلى الإصلاح الديني والإفادة من الثقافة الغربية في الدفاع عن الإسلام. وأيضاً كانت دعوته إلى التحرر من تدخل الأجانب في شؤون البلاد الإسلامية فد إلى الثورة على هؤلاء الأجانب وأيضاً على الحكام المستبدين الذين يهددون للأجانب. التقى حول جمال الدين الأفغاني كثير من المثقفين المصريين من أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الله ندبم ومصطفى كامل والشيخ علي يوسف.

الاحتلال الإنجليزي لمصر:

كانت الأنظار تتوجه إلى فشل سياسة راسماعيل المالية وما جلبت على البلاد من الأخطار وتسبب ذلك إلى نمو الرأي الشعبي والنزعة القومية. فسرعان ما ظهرت صحف مصرية تنقد هذه السياسة في صراحة. ونادت بأن مصر للمصريين، مثل جريدة مصر والوطن. سقطت وزارة نوباد سنة ١٨٧٩م، ثم تطورت الحوادث وكانت ثورة الجيش بقيادة عرابي ضد الضباط الأتراك المجرأسة في عهد توفيق سنة ١٨٨٢م. توفيق طلب العون من الإنجليز ضد هذه الحركة. ومن هنا أنضج الإنجليز مصر لاحتلالهم البغيض. وفي أثناء هذا الاحتلال حاول الإنجليز أن تكون منزلة ثقافتهم في مصر فوق منزلة الثقافة الفرنسية والثقافات الأوروبية الأخرى فأحياناً جعلوا لغتهم هي لغة العلم والتعليم وأحياناً جعلوا جميع البعثات العلمية إلى بلادهم. وفدت على مصر جماعات من البعثات الدينية الغربية المختلفة وأسست مدارس كثيرة في المدن المختلفة مثل القاهرة والإسكندرية وغيرها من عواصم القطر المصري، وأثرت هذه المدارس في حياة المصريين الثقافية. هذه البعثات الدينية بنوعها الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية كانت أكثر نشاطاً في سوريا ولبنان. إلا أن مدى عمل الكاثوليكية الفرنسية كان أوسع بفضل اليسوعيين الذين اهتموا باللغة العربية وحياتها الأدبية.

كان ظاهراً أن حاكم مصر من أسرة محمد علي لا يمت إليها بصلة جنسية أو قومية. وكانت مصر محكومة بالمستشارين الإنجليز وزارتها عند مصريين، وأكثر هؤلاء المصريين كان من أصول تركية. كان الإنجليز يحكون هؤلاء الوزراء بمستشاريهم وموظفيهم في الوزارات أو النظارات المختلفة. كما أنهم أنشأوا مجالس تشريعية لكنها لم تكن تملك من الأمور والسلطان شيئاً. مع كل ذلك لم يستطع هذا الاحتلال القضاء على الحركة الوطنية قضاء

مربوماً. ولو أن هذه الحركة قد جددت، ولكن إلى مدة. لأن الطبقة المستنيرة من المصريين كانت قد نشأت وشرعت تشاركت في الحكم واشتركت في تقلد المناصب الكبيرة. ومن جانب آخر رجع المنفيون إلى وطنهم في عهد عباس الثاني. فنشطت الحركة الوطنية التي تمثلت في الزعيم الخالد مصطفى كامل. وقد أصدر صحيفته اللواء في سنة ١٨٩٩م، وجعل منها ومن خطبه النارية وسيلة لإلهاب عواطف المصريين ضد الإنجليز، وأسس الحزب الوطني. وأيضاً قام بزيارات كثيرة لعواصم أوروبية يعرض قضية مصر ويندد بالاحتلال الإنجليزي العاشم.

حادثة دنشواي:

في سنة ١٩٠٦م حدثت حادثة دنشواي المشهورة. وقد توفي في هذه الحادثة ضابط إنجليزي كان يصطاد الحمام بهذه البلدة إثر ضربة شمس. ولكن الإنجليز ظنوا أنه توفي تبيلاً وأن أهل هذه البلدة قتلوه. لهذا عاقبوهم بطريقة وحشية فظيعة، بأن نصبوا المشانق في البلدة، وشنقوا جماعة، وسجنوا آخرين، ونزلوا بالسياط على البعض، مع أنهم جميعاً كانوا أبرياء وقد اعتبر هذا العمل عدوانهم على الشعب المصري بأجمعه. اتضح مما قام به الشعب المصري من الاحتجاجات والمظاهرات بعد هذه الحادثة أن المصريين لا يريدون الإرهاب إلا حقداً وسخطاً على المحتل العاصب.

ازداد الإنجليز في عنيتهم وظلمهم وسجنهم وتضييق الخناق على حريات الشعب المصري، حتى نشبت الحرب العالمية الأولى فأعلنوا الأحكام العرفية. لما وضعت الحرب أوزارها ثار عليهم المصريون ثلاث سنوات طويلاً. ولم يفتروا عنهم بنفي ولا تشريد ولا سجن. بل ظلوا يعاندونهم حتى أجبروا العدو على تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه احتفظ الإنجليز ببعض المسائل كسألة السودان ومسألة الدفاع عن مصر.

لم يخفف هذا التصريح من حدة الثورة المصرية على الإنجليز، بل استمرت هذه الثورة على حالها وما زالت مصر مضطربة بعواملها حتى وقعت. انجلترا معاهدة سنة ١٩٣٦م ولكنها أيضاً لم تحقق غاية مصر. فلم تضعف حدة الثورة المصرية، إلى أن جاءت البشرية بثورة الجيش المباركة فتحقق حلمها القديم. وطردت الثورة العدو المستعمر من الوطن.

العوامل المؤثرة في الأدب العربي الحديث

مدرسة دار العلوم:

أحسن المسئولون عن الثقافة والتعليم أن الأزهر في عزلة عن هذه الحركة التي تولدت نتيجة عن الحملة الفرنسية وأنه لا يقوم بواجبه نحو تعليم اللغة العربية وعرض آثارها عرضاً حسناً على الشباب المدني وتبسيط هذه اللغة. بلغت اللغة العربية فيه حالة من الجود ما جعلها غير صالحة لتحمل أعباء هذه الثقافة الأوروبية من ترجمة وتأليف. لهذا قام على مبارك بإنشاء مدرسة دار العلوم لتنهض في تعليم اللغة العربية بما عجز عنه الأزهر.

نستطيع أن نقول أن إنشاء دار العلوم هو رمز إلى ما كانت تبتيغيه مصر في ذلك الوقت من المزاوجة بين الآداب الأوروبية والآداب العربية. فعند ما رأت قصور آدابنا من تأدية آثار الفكر والشعور الغربيين أداءً وانحطاً صريحاً بسبب ما علق بها من أعشاب السجع والبديع انبرت تغير الوسائل التعليمية لهذه الآداب. هذه الحقائق كانت

عاملاً في التهيئ حتماً للتأثر بالآداب الغربية. أثرت هذه المدرسة من ناحية على اللغة فتسببت في تمرينها على أن تفي بما يراد بالتعبير عنه من ألوان الفكر وصور الشعور، ومن ناحية أخرى أثرت في التحضر والأخذ بالذوق إلى الاقتراب من ذوق الغربيين.

هجرة اللبانيين والسوريين إلى مصر:

كانت تهاجر إلى مصر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر طوائف من اللبنانيين والسوريين الذين تخرجوا في مدارس اليسوعيين. وهم الذين سبقوا المصريين إلى العناية بالآداب الغربية في عقود يارهم. ويرجع الفضل في ذلك إلى البعثات الدينية التي علمتهم. لم يكن حالها مثل حال محمد علي الذي اعتنى بنقل العلم إلى سوريا ولبنان، بل كادت تقصر عنايتها على الحياة الأدبية الغربية. واشترك هؤلاء المهاجرون مع المصريين في العمل في النهضة الأدبية والصحافية. نقل سليم النقاش وغيره فن التمثيل الأوربي حسب معرفتهم إلى مصر ودعموا بذلك اتجاه أهل مصر نحو الآداب الأوروبية. أيضاً اشترك هؤلاء المهاجرون والمصريون ساعاً في العمل في حقل ترجمة الآداب الأوروبية. أذكر منهم محمد عثمان جلال الذي كان يترجم مع غيره من المصريين لمولير وغيره، ونجيب حداد وغيره من المهاجرين كانوا يترجون لكودني وشكسبير وغيرهما من الغربيين، كما ترجم سليمان البستاني إلى لياذه لهو سيروس مزاجاً بينهما بين البحور العربية ومبقياً على كل سماتها وخصائصها الملحمية. في هذا الوقت كثرت الترجمة للمسرحيات والقصص الغربية حتى بلغ عددها مئات. في فهارس دار الكتب المصرية نجد ما يصور هذا النشاط. طبعاً هذه الروايات المترجمة والمعرّبة كانت تغیر وتؤثر في ذوق الجمهور وتكون صلة بالآداب الأوروبية ونهضة لكي يستمتع مياديينها مؤلفاً كما اقتحمها مترجماً ومعرباً. أما ترجمة العلم الغربي فمصر سبقت إليه

منذ أوائل القرن التاسع عشر.

الجامعة المصرية وارسال البعث:

جمعت تبرعات ضخمة لتأسيس الجامعة المصرية وفتحت هذه الجامعة في عام ١٩٠٨م. كانت تلتقى بها محاضرات في الأدب والفلسفة والتاريخ، كان يلقيها أساتذة مصريون وأوربيون من المستشرقين أمثال جويدى ونالينو. يشير هذا الأمر إلى تغير مصر في حياتها العقلية تغيراً كبيراً. فبدأ يدرس فيها العلم والأدب الغربي لنفسهما لا لغاية أخرى كما نشأ جيش أطبقة من موظفي الدواوين أو معلمى اللغات في المدارس. لم تكن الغاية وراء هذه الدراسة سوى البحث الحر والمتعة بهذا البحث متعة خالصة، التي تعلق على الغايات الحكومية واليومية التافهة. استجاب شباب مصر لهذا الطموح الذي جذب جلة المصريين ممن فكروا في تأسيس هذه الجامعة أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين ولطفى السيد.

أرسلت الجامعة طلابها إلى أوروبا لاستكمال البحث والدرس، فدخلوا هناك حقول العلوم والآداب بقوة وروح عظيمة. في هذا الوقت نشطت حركة البعث في وازدة المعارف أيضاً جيل من مدرسة المعلمين العليا انبعث عن نفس الطموح ونفس الآمال لتثقيف نفسه بالآداب الغربية ثقافة واسعة كما اتجه أيضاً بعض المصريين المتروكين إلى نفس الهدف.

عند الحرب الكبرى ظهرت آثار كل هذا واضحة. فنرى الشباب الجامعي وغير الجامعي

قد اتصل بالحضارة والثقافة الأوروبية، وأخذ منها نفسه ووطنه كل ما كان يريد من كنوز عقلية وأدبية. وغيرهم من أبناء الوطن الذين لم تتح لهم فرصة السفر ما لوالد إلى النهل والاستفادة من هذه الآداب الغربية عن طريق الترجمة. وظهرت نتائجه بعد الحرب الأولى في صورة جيل كبير تم تثقيفه بالآداب الغربية ثقافة منظمة، وزاد على ذلك فأخذ يثبت شخصيته أيضاً.

بلغ هذا الجيل حد الكمال تقريباً بواسطة الترجمة بما أوتي من قدرة لغوية وأدبية، ولا نستطيع الإنكار عن أثر التجارب الطويلة التي قام بها المترجمون طوال القرن الماضي في إحسان هذا الجيل لوسائله اللغوية. المترجمون القدماء عانوا معاناة طويلة في سبيل الحصول على اللفاظ العربية التي تقابل الألفاظ الأجنبية سواء في الآداب والعلوم والمترجمون المعاصرون أوفوا من دقة الترجمة وجمال أسلوبها على الغاية التي كانت تطمح إليها مصر وتنتظرها. في هذه الغاية التي بلغها لطفى السيد وطه حسين وإبراهيم المازني وأمثالهم نرى تراجاراً رائعاً بين الآداب الغربية والعربية. لم تعد اللغة العربية الآن تنفر من هذه الآداب، ولم تعد تستعصى عليها، بل لقد استقرت في أذهان أبنائها وأصبحت كأنها من تراثها وتراثهم.

ثم تطورت الجامعة المصرية بعد الثورة الوطنية الأولى والحصول على الاستقلال المقيد ببعض الشروط. فوضعت هذه الجامعة تحت إشراف الحكومة سنة ١٩٥٢م، واتسعت فاشتملت بجانب الآداب الطب والعلوم والحقوق، وبعد ذلك ضمت الهندسة والزراعة والتجارة والطب البيطري. بهذا بلغت هذه الجامعة كل ما كان يقدره لها المصريون من نجاح في أوائل القرن. قدم إليها العلماء والأدباء الأوربيون، وبعد قليل من الزمن أصبح في مصر علماءها المتخصصون في جميع فروع العلم وأدباؤها الذين يجمعون جميع صنوف الآداب الغربية القديمة والحديثة. حققت الجامعة بحوثاً علمية وأدبية متميزة، حسب ما كان مطلوباً منها، وخرجت جيلاً يتم مع الأساتذة الرائدة هذه الدورة الرائعة في تاريخ العلم والأدب العربيين، فترجم الغربيون حديثهم كما ترجموا ويترجمون حديث الغربيين.

الاتساع بالتعليم:

الاتساع بالتعليم كان العماد في إقامة نهضة حقيقية، حتى شعر بعض المفكرين

بضرورة جعله عامّاً كالهواء والماء بحيث يستطيع كل مصري أن يتمتع به . نزل هذا التعليم في شوارع المدن المجاورة للقري المصرية وبين جدرانها وهكذا أصبح يغزو القرى المصرية . لم يعد الآن تيار غربي منفصل ، فقد اتحد هذا التيار مع التيار العربي الموروث ، فطبعاً لم يكن التعليم خالياً من هذا التيار . و أنتج التياران معاً حياة عقلية جديدة كما أنتج أدباً جديداً .

أشعة العلم والأدب تتألق في أعلى هذا التعليم ، وألوارهما في الجامعات المصرية المختلفة تتمثل في الرقي العلمي والأدبي الذي ناله الشعب المصري . كان من مظاهر ذلك تنظيم الحياة العلمية والأدبية عن طريق الجامعات التي أخذ العلماء والأدباء فيها يسبقون كل عربي وكل غربي في نههم شديد للمتاع الفكري .

الترجمة :

نظمت الترجمة فأقيمت عليها جمعيات مختلفة مثل لجنة التأليف والترجمة والنشر ودعمتها الحكومة خير رعاية . ولم يقف عمل الترجمة عند حد النقل من الفرنسية أو الإنجليزية بل تجاوزته ، إلى ترجمة بعض عيون الأدب من الألمانية والإيطالية والروسية . طانت ثمرة هذا المجهود المنتظرة بإقامة أدب مصري إنساني أقامته سواعد شوقي وشكري والعقاد والمازني ولطفي السيد وطه حسين وهيكمل وتوفيق الحكيم وغيرهم من الذين أحدثوا هذا الأدب . لم يقتصر هذا الأدب على حدود البيئة المصرية وتراث المصريين القديم ولا على البيئة الغربية وتراث هذه البيئة القديم والحديث . بل أصبحت بيئة إنسانية كبرى تنتشر فيها غايات الحق والخير والجمال ، وهي الغايات السامية للأدب الحقيقي .

أضاف العلماء والمتقنون إلى التأليف ترجمة الفكر الغربي أيضاً . بجميع ألوانه

وصوره . كانت لهذا العمل في المجال الثقافي الأدبي حظوظ واسعة . أقبل الأدباء على ترجمة عيون الأدب الغربي ونقل آثار الأمم الغربية بكثرة ، فقليل من الكتاب والشعراء الغربيين من فاتهم دون أن ينقل بعض أعماله . وللعيل الأول من الأدباء مثل طه حسين و خليل مطران والماذني وأحمد حسن الزيات في هذا المجال جهود لا يمكن الإنكار عنها . ثم قام الشباب الذي أتقن اللغات الأجنبية في الجامعات بجهود واسعة في هذا الميدان في إثراء هؤلاء السابقين . فحصل هؤلاء الشباب على عاتقهم هذا العبء وأدوه أداء يحجب الشناء عليه . فإنهم يتراءون في شكل صفوف تنقل من جميع اللغات الأوربية ، من الإنجليزية والإيطالية والألمانية والفرنسية والإسبانية ، فكانهم عزموا على ألا يتركوا أثراً غربياً جليلاً دون نقله . ولم يكتفوا بنقل هذه الآثار بعينها بل زادوا على ذلك نقل جوانب من تاريخ القوم الأدبي العام وبسطوا مذاهبهم الأدبية من كلاسيكية ورومانسية وواقعية ، إلى رمزية وسريالية وطبيعية لم تنفرد مصر بهذا الجهد الخصب ، بل نهضت معها البلاد العربية الأخرى أيضاً ، وخاصة لبنان ، ظلها عمل واسع في هذا الاتجاه .

شباب هذا العصر في هذه المرحلة الأخيرة من الأدب العربي الحديث ، أساءوا الآداب الغربية ونشروها بين الشعب العربي في صورها وفنونها المختلفة وتمثلوها خير تمثيل فتحو لقومهم أبواب الآداب الغربية على مصاريعها حتى لم يبق بين الآداب العربية والغربية حاجز . هكذا اتصلت حياة العرب الأدبية بالآداب الغربية وأصبحت سلسلة من الاتصالات التي أحكمت حلقاتها الأولى بتراجم هيكل وطه حسين والعقاد والماذني ثم باستاجهم . فقد توجه كل منهم بالعناية إلى أن يحدث نماذج أدبية مطابقة لنماذج الغربيين ، وعنوا خاصة بالنموذج القصصي . ثم أخذ الشباب الذي خضع في معيشته وتفكيره للحضارة الغربية ينوع في تأثره بنماذج الغربيين . فما استحدث هذا الشباب لنفسه كانت نماذج جديدة في القصة والمسرحية .

وكذلك كل ما يلج به الغرب من فنون، مثل ما نعرف عند توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حتى
 ومحمود تيمور وغيرهم كثيرين الذين يجيدون هذا الفن القصصى بإجادة رائعة. وبلغ الحال من جودة
 ما أنتجوا أن قصصهم بدأت تتوهم إلى اللغات الأجنبية، وأيضاً بعض المسرحيات أخذت تترجم
 وتمثل على مسارح الغرب، مثل بعض مسرحيات الحكيم التي شلت في النمسا وإيطاليا وفرنسا. وهكذا
 أصبح العرب آخذين من الغرب وواهبين له، وأصبحوا يقرأون في اللغات الأجنبية. بهذا تم من الاتصال
 بين العرب والغرب ما كان ناقصاً، فلم يعد الأدب المصرى منعزلاً عن العالم يعيش وحده، بل أصبح
 أدباً عالمياً إنسانياً، يسمو إلى درجة الآداب العالمية الحية الكبرى. فيصح القول أن الأدب المصرى
 الحديث إنما تم بعنه الكمال بعد الحرب العالمية الأولى. سبقت مقدمات منذ أوائل القرن
 العشرين، ولكنها كانت خطوات في سبيل إيجاد هذا الأدب الذى صار متنوعاً في موضوعه كما
 صار متنوعاً في شكله وأساليبه. اضطرت الترجمة الواسعة المترجمين أن يهجروا الأسلوب
 الذى ترجم به رفاعة الطهطاوى وتلاميذه، أى أسلوب السجع والبديع. لأنهم رأوا أنه يفسد
 المعانى التى يريدون نقلها والتعبير عنها، فساداً. لأنه لا يتسع لهذه المعانى، فلا يكون للترجم
 إلا أن يؤديها أداء مضطرباً ويعبر عنها تعبيراً يمتلىء بعوائق السجع والبديع.

الطباعة:

منذ القرن الخامس عشر عرفت المطبعة في أوروبا وطبع الأوربيون بهذه المطبعة
 الكتب العربية منذ نفس القرن أو من القرن السادس عشر. ثم نقلت المطبعة من الأوربيين
 إلى تركيا في القرن السابع عشر، كما نقلت إلى سوريا في القرن الثامن عشر. أما مصر فعرفت
 المطبعة عند حملة نابليون بونابرت. فاستخذمتها في منشوراتها بعد أن نقلها إليها. غادرت
 مصر هذه المطبعة العربية مع مغادرة الحملة التى كانت قد جلبتها معها إليها. ثم أنشئت

مطبعة بولاق المشهورة في عهد محمد علي . هذه المطبعة منذ تأسيسها طبعت الكتب العربية والتركية وكانت تطبع بها صحيفة الوقائع المصرية أيضاً . أنشئت صحف مختلفة تعبر عن الرأي العام المصري الذي أخذ يتكون مع تقدم الزمن ، فازدادت الحاجة إلى فن الطباعة ، الفن الأولي الجديد ، وشجع عن ذلك أن انتشرت المطابع في الإسكندرية وفي عواصم القطر المصري المختلفة بنزى كثرة المطابع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكثراً أيضاً طبع الكتب العربية القديمة ودواوين الشعر العباسية وغير العباسية بها .

أثرت المطابع تأثيراً واسعاً في الحياة الأدبية . فطبعت هذه المطابع الكتب القديمة والمصادر الأولى في الأدب مثل كليلة ودمنة لابن المقفع وكتابات ابن خلدون والملاحظ وغيرهم ودواوين أبي تمام وأبي نواس والمتنبي وأمثالهم . ماطلع الأدباء والمثقفون على هذه الآثار الأدبية وعلى مثل نماذج في الأدب العربي ما عرفوها . ورأوا أساليب جديدة ونماذج جديدة في التعبير تختلف اختلافاً واضحاً عما كانوا يعرفونه . فكان ما عرفوه من قبل الآثار القريبة منهم التي كانت مملوءة بالسمج والبديع . وما عرفوه الآن خال من التكلف والصناعة والبديع والسمج . فيه نماذج بسيطة وأساليب مرسلة شفافاً ، لا تخفى معنى ولا تسترد لالة . فارتأوا في ما يألّفونه من جهة الأساليب الأدبية والدينية وطلبوا طرق التعبير القديمة في الأدب والدين . أيدت أوروبا أيضاً هذه الحركة ، بلباعتها العربية وجهود المستشرقين فيها . وفدت على مصر كثير من كتب عربية قديمة طبعت في أوروبا ، فقرأ فيها المصريون ما رأوا فيما طبع تحت عيونهم . ليس فيها إسراف في التكلف ولا الغاز وتمية ولا سمج ، بل فيها لغة بسيطة تحمل أفكاراً محلية وأدبية طريفة . المطبعة العربية نشرت في الناس الكتب الغربية ، التي ترجمها أعلام المصريون من الذين حذقوا اللغات الأجنبية ، بالإضافة إلى نشر الكتب القديمة والدواوين العباسية وراحائها . أكثر هذه الكتب كانت كتباً علمية في النصف الأول من القرن الماضي ، أما في نصفه

الثاني فقد ذاحتها الروايات والكتب الأدبية .

وقد تعاود هذان الطرفان من الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المترجمة إلى العربية ، صغاً في إحياء العقل المصري خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ولا مجال للشك في أن أصحاب الثقافة القديمة من المتون وشروحها والشعر الركيك المعقد قاموا هذين العصرين الجديدين ، لأنهما يخالفان ما ألفوها في الأدب من فكر وعلم وأسلوب مسجع معقد . ويمكن تركيز هؤلاء الأصحاب في ذلك الوقت في رجال الأزهر ، إنهم حسبوا الجديد الأوربي مروجاً من الدين من بعض الوجوه ، والأساليب الأدبية المرسله إسفافاً في اللغة وضعفاً . هكذا نستطيع رؤية الصراع الأدبي الطريف في القرن التاسع عشر بين محافظين ومجددين . المحافظون هم الذين أرادوا البقاء على ما ألفوا من فكر وعلم ومن أسلوب مسجع معقد ، المخالفون للعصرين الجديدين . والمجددون الذين طلبوا ما عند الغرب وما عند العرب القدماء ، وسعوا لمزاوجة العصرين ، حتى تستطيع إغناء الفكر المصري وإعداد اللسان المعبر عنه لأدائه أداء سليماً .

يتبين لنا خطر المطبعة كعامل في إيقاف العقل المصري ، في أثناء القرن التاسع عشر وتوجيهه إلى مثل جديدة في اللغة والفكر بالنظر إلى الطريقة التي كان ينشر بها الأدب قبل ظهور المطبعة . فقد كان الاعتماد في ذلك على النسخ باليد ، الذي كان يكلف أثماً باهظة . ولم يكن باستطاعة جميع الناس تكلف هذه الأثمان الباهظة . نتيجة عن هذا ، كان الأدب والعلم محدوداً بطائفة خاصة في الأسم القديمة ومنها الأمة العربية أيضاً . يطالع الكتب من كان له ذوق بها ولم تصل أيدي عامة الناس إليها . فكانت كذلك الحياة العقلية والأدبية ضيقة ، لم تتجاوز فئات قليلة إلى الشعب ، لهذا كانت كثرتهم جاهلة ، لا تعلم شيئاً من أمور الثقافة . بعد اختراع المطبعة أصبح الكتاب الواحد تطبع منه نسخ كثيرة ، يبلغ عدد هذه إلى أكثر من مئات . فصار

باستطاعة جمهور كبير من الشعب الوصول إلى الكتب والاطلاع عليها والاستفادة منها لأنها صارت موجودة لهم بعدد وافر وثمن زهيد. فازداد بذلك النشاط العلمي، واتسع تبادل الأفكار في الآداب والفنون والعلوم، ونمت الحياة العقلية والأدبية بين جميع الناس، عامتهم وخاصتهم، فأصبحت حقاً شاعراً لكل، ولم تبق مخصصة لجماعة معينة. وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول أن المطبعة ألغت أرستقراطية العلم والآداب وجعلتها ديموقراطية.

مع ظهور المطبعة في القرن للماضي فتحت المكاتب في مصر، في كل مكان. كان القصد منها بيع الكتب ونشرها. وأيضاً فتحت دور الكتب العامة ليقرأ المتعلمون فيها، ما ليس باستطاعتهم شرائه. ففي سنة ١٨٧٠م قام علي مبارك بإنشاء دار الكتب المصرية، ووفر فيها الكتب في الآداب والعلوم والفنون المختلفة. وأضاف إلى الكتب العربية طائفة كبيرة من كتب اللغات الغربية. قام أيضاً بتحديد الأوقات للدار في الصباح والمساء لقراءة واطلاع الشعب من هذا الاستفادة منها. مكن للشعب استعارة الكتب خارجها، بوضع نظام خاص لهذه العملية. هكذا كانت هذه جامعة شعبية كبرى للثقافة والاطلاع العقلي الخصب.

كانت المكاتب موهبة من الطباعة والمطابع. ومما زاد في أهمية المكاتب في تثقيف الشعب اتساع دائرة التعليم منذ عصر إسماعيل. لأن هذا أنتج كثرة الجمهور القارئ الذي تخاطبه والذي يمكن أن يفيد منها في صقل عقله وذهنه ومن آثارها.

سهولة المواصلات في العصر الحديث عملت على تقريب المسافات بين الأديار وقرائهم وبين الشعوب بعضها ببعض. كما زادت أيضاً من فائدة الطباعة لأنها كانت سبباً في إشاعة الآثار المطبوعة في مصر وخارج مصر من الشام والعراق وغيرها من البلدان العربية وأوروبا. فإن ما يطبع في أوروبا يصل بسرعة خاطفة إلى مصر. قد انكشفت المسافات، خاصة في هذا القرن الذي نستطيع أن نسميه قرن التبادل الثقافي.

كان لفن الطباعة أثره في حقل الترجمة أيضاً. فعرف المترجمون بعد رفاعة، عن طريق المطابع وعن طريق ما تشتهر هذه المطابع من آثار الأدب العباسي أن وراء أسلوب رفاعة القاصر الذي ترجم به، أسلوباً سراً سراً آخر. وعرفوا أن هذا الأسلوب يمكنهم من أن يصوغوا العبارات بحيث تؤدى المعاني الأوربية أداءً يسيراً وسهلاً. ودأبه يشبه الأساليب الغربية التي ينقلون عنها، فإنها تصاغ في لغة خالية تماماً من ألتال السجع والبديع. فجعلوه وسيلة لهم إلى أداء معانيهم. هكذا أعدت المطبعة الطريق للمترجمين إلى تفصيل الأسلوب العتيق الفصيح والأخذه، والانفكاك عن أسلوب رفاعة الثقيل العتيق. بل زاد المترجمون على ذلك، فأخذوا يمرنون هذا الأسلوب على أداء المعاني الغربية الدقيقة، سواء في الفكر أو في الشعور، فأثبتوا بذلك أن اللغة العربية الفصيحة لا تستعصى على أداء هذه المعاني، فكانوا بذلك، بفضل المطبعة، عاملاً مهماً من عوامل بعثها ونهوها.

أثرت المطبعة والصحف على الترجمة من ناحية أخرى. فالمترجمون لم يكونوا يترجمون للطبقة المثقفة الممتازة، بل كانوا يترجمون للجمهور. فاختلف شأنهم من شأن المترجمين في العصر العباسي والعصور السابقة. لأن السابقين كانوا يترجمون لجماعة محدودة من الأمة، وكانوا يقدمون لها ترجمتهم في نسخ خطية قليلة. في هذا العصر لاحظ المترجمون أن من يخاطبونهم لا ينتمون إلى الطبقة المثقفة العليا في الأمة، بل هم يكونون طبقات الأمة على اختلافها. فأصبحت الترجمة أيضاً ديموقراطية بعد أن كانت أرسقراطية كالعلوم والآداب. أحدث هذا الأمر تطوراً واسعاً في أسلوب الترجمة والكتب الأدبية، لأن أصحاب الترجمة والآداب أخذوا يلائمون بين أسلوبهم ولهجات الشعب، حتى تفهم عنهم ما يريدون قوله، بدون أي شقة. من هنا بدأت الأساليب الأدبية تميل إلى البساطة ومراعاة السهولة، فالكاتب يسعى جاهداً إلى تبسيطها وتيسيرها، حتى تكون راجحة في الجمهور. ولم يرجع المترجمون والآدباء إلى الأسلوب القديم الفصيح أو الأسلوب المرسل الحرفسي، بل أخذوا يبسطون أسلوبهم تبسيطاً. بحيث لا ينزل أو يسقط بأسلوبه هذا

إلى الابتذال أو إلى مستوى العامة، ولا يعلو عليهم فيشعرون بالعسر في قراءته وفهمه. فهو أسلوب بسيط سهل، ومع ذلك فهو أسلوب عربي فصيح.

فالمطبعة بالوسائل الحديثة في النشر وبما عملت على إذاعة الأدب العربي القديم وبما تعمل على إذاعة الأدب الغربي بين العرب، مترجمة في لغات هذا الأدب، أحدثت آثاراً كبيرة في حياة العرب الأدبية. أقل ما يقال فيها أنها تسببت في توسيع دوائر الثقافة إلى أبعد الحدود.

الصحافة:

من أهم آثار الطباعة إصدار الصحف وإذاعتها في طبقات الشعب المختلفة، بالإضافة إلى إذاعة الكتب ونشرها بسهولة، كما ذكر سابقاً. عرفت أوروبا الصحافة واتسعت فيها منذ القرن السابع عشر، وأعدت الناس هناك لرأي عام يظهر ما في نفسه من رضا وسخط على الحكومات. وثار هذا الرأي في فرنسا على الأرستقراطية الملكية وعلى ما يتصل بها، فكانت الثورة الفرنسية المعروفة.

عند نزول الحملة الفرنسية في مصر، كانت تصدر هناك صحيفتان العشار المصري وبريد مصر، لكنهما لم تملكا أثراً في الشعب المصري لأنها كانتا تستخدمان اللسان الفرنسي. لما ولي محمد علي سدر "جرنال الخديوي". ثم حدث تحول لهذا الجرنال في سنة ١٨٢٨م إلى جريدة الوقائع المصرية. كانت تصدر في البداية باللغتين العربية والتركية، ثم أسندت إلى دعاية الطميطاوي، فقصرها على اللغة العربية. الرأي العام المصري لم يكن قد تكون إلى الآن

فكانت هذه صحيفة رسمية لا تصور رأياً عاماً واشتملت على بعض الطرائف الأدبية بالإضافة إلى اشتمالها على الأخبار الحكومية. فيستبين لنا أن النشاط الصحفي إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي كان خامداً.

جاء عصر إسماعيل وبدأت مصر حياة عقلية نشيطة، شرع الرأي العام يتكون بسرعة، واجتمعت عوامل مختلفة للنهوض بالصحافة. ففي عهد على مبارك عنيت نظارة المعارف بإخراج مجلة روضة المدارس، كان رفاعة الطهطاوي مشرفاً عليها، فقام بتوجيهها نحو غايتين: أولاهما إحياء الآداب العربية وثانيتهما نشر المعارف والأفكار الغربية الحديثة، مجلة الأدباء والعلماء من معاصريه كانوا معاوين له في ذلك العمل. فكانت تنشر في المجلة مباحث طريفة في الفروع المختلفة للأدب والعلم. كانت تصدر أيضاً مجلة طبية باسم مجلة اليعسوب، أصدرها محمد البقلي وإبراهيم الدسوقي، عملت هذه المجلة على وضع المصطلحات الطبية والعلمية في العربية.

في أثناء هذا نمت الحركة الشعبية في مصر، واتفحت للشعب سياسة إسماعيل وسياتها، وخاصة عند ما أظهر موافقته لتأسيس صندوق الدين والمراقبة الشائنية وكان موقف الرأي العام من هذه السياسة موقف الغضب. فقد أوشكت هذه السياسة أن تحطم مصر عظيمًا. ولم يمر زمن طويل حتى ظهرت الصحف السياسية مثل "وادي النيل" لعبد الله أبي السعود، "نزهة الأفكار" لمحمد عثمان جلال وإبراهيم الموييلي، "التبكييت" والتبكييت، وأختها "الطائف" لعبد الله نديم. وأول جريدة سياسية هزلية ظهرت في مصر قبل ما سبق ذكرها، صحيفة "أبو نظارة"، أخرجها يعقوب صنوع. وكان ينقد فيها سياسة إسماعيل نقداً شديداً ومراً.

ثم وصل إلى مصر المهاجرون من اللبنانيين والسوريين، فساهموا مساهمة

قوية ونافعة في هذه النهضة الصحفية الشعبية، واشتركوا مع المصريين في مشاعرهم الوطنية التي يعبرون عنها في صحافتهم. أذكر منهم على سبيل المثال أديب إسحاق في جريدته "مصر". هذه الجريدة كانت منطبقة لرغبات الشعب المصري في الإصلاح، حتى في المجال الديني الإسلامي. هذا المجال الذي كان يعمل فيه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، شارك فيه المهاجرون. ومن الصحف التي أسستها هذه الطائفة صحيفة الأهرام، وصحيفة المقطم.

عندما احتل الإنجليز أرض مصر خمد الصوت الوطني المصري، وأغلقت أكثر الصحف، حتى نشاط الرأي العام من جديد ونشاط الحركة الوطنية معه، فعند هذا رجعت الصحافة أيضاً إلى النشاط. فظهرت صحيفة المؤيد التي أنشأها الشيخ علي يوسف، وصحيفة الأستاذ التي أنشأها عبد الله نديم، وصحيفة اللواء التي أنشأها مصطفى كامل. اتخذ حزب الأمة صحيفة الجريدة لساناً له. ونغم محاولات الإنجليز مراراً أن ينكروا بالصحافة ورنغم، وانذاراتهم وقوانين مطبوعاتهم، استمر ظهور الصحف، مثل مصباح الشرق، غير الصحف الهزلية.

انكشف الاحتلال عن مصر، وضع الدستور وأقيم البرلمان، نشأت الأحزاب السياسية في مصر وتصارعت. أسس كل منها نفسه صحيفة لينشر فيها آراءه، وتعددت صحف كل حزب وبالإضافة إلى الصحف صدرت مجلات متنوعة كثيرة، أسبوعية وشهرية. من أهمها المقتطف التي أسسها أصحاب جريدة المقطم في القرن التاسع عشر، والهلل والبلاغ الأسبوعي والسياسة الأسبوعية، والثقافة والرسالة، والكاتب المصري والكتاب. وازداد عدد المحررين إلى حد كبير، وخاصة في الصحف اليومية الكبيرة. وبعد أن كانت كثرتهم من أوساط المثقفين، أصبح كثير منهم يحمل الشهادات العالية والجامعية. هذه المجلات كانت تنشر فصولاً طويلة في العلم وفي الأدب الغربي والعربي وخاصة مجلة المقتطف. وكان هذا الاتجاه هو الغالب على المجلات التي ذكرنا أسماءها. دأبت هذه الصحف والمجلات على نقل مباحث واسعة

فى الأدب والفكر الغربيين إلى القراء . وسبب ذلك اتساع نطاق الأدب .
اختصت الأحزاب فيما بينها فى أسس الحكم وما يرجو للأمة من خير فى كثير
من الأحيان أعرضت هذه الأحزاب عن خدمة الأمة إلى خدمة مصالحها فى كراسى
الحكم ، وفى أثناء هذا كان المصريون ينهضون عقلياً وروحياً ، فضميرهم أو ضمير شبابهم
كان يزداد يقظة وتنهباً بسبب كتابة الأدباء والفكرين فى الشئون المختلفة من الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية . منذ نشأة الأحزاب ، بدأت الصحف تطلب من الأدباء الكتابة
فيها ، لتجذب الجمهور إلى شراؤها وتجاوز الأدباء من الكتابة فى الأدب إلى الكتابة فى السياسة
فدخلوا فى خصوماتها الحزبية ، ثم نقلوها إلى معارك فى الأدب القديم والحديث . كما اتحاصموا
أيضاً فى المثل العليا التى يجب الاستقرار عليها بين المصريين فى حياتهم الأدبية والعقلية .
هكذا اتصلت الصحافة مباشرة بالحركة الأدبية وتفاعلت معها ، فأثرت على منها
الأخرى بآثر واضح . ودخول الأدباء فى الصحافة جعل لبعثهم هذبة ، كما مكنتها من التعبير السياسى
الدقيق الذى يقوم بتصوير عواطف القارئ السياسية وخواجهم . أما الحركة الأدبية فإنها
تحت أثر الصحافة تغيرت كثيراً ، فأصبح الأدب يخاطب جماهير الشعب . وباتجاه الأدب إلى الجماهير
عن طريق الصحف أصبح الأدب اجتماعياً فى مجلته . ففى القديم كان الأدباء يخاطبون ملوكاً وأمرأاً
يرضونهم بما ينشئون فى أدبهم . وأصبحوا الآن يخاطبون الجماهير ويحاولون إرضاءها ونيل عطفها .
لأن الجماهير هى وسيلة أرواحهم عن طريق ما تشتري من صحفهم أو كتبهم . وإن كان قد بقى
قليلون ، وخاصة من الشعراء الذين حاولوا استرضاء أمراء البيت العلوى ، فقد حاولوا استرضاء
الشعب المصرى فى تقديمهم الشعراء إلى هؤلاء الأمراء ، فذكروا بعض الإصلاحات التى تمت فى أيامهم
أو أثاروا عواطف دينية ووطنية فى أشعارهم . وبلغ الأمر إلى أن تصاند المدح التى كانت تنظم
فى بعض الناس مثل توفيق وعباس وغيرهما ، كان أصحاب هذه القصائد يفكرون فى الشعب بالإضافة

إلى تفكيرهم فيمن يمدحونه . وكانوا يمثّلون كثيراً ليتقوا موقعاً حسناً من نفس الشعب وقصدوا
 الظفر برضا الشعب وبإعجابه . هكذا أصبح الشعب في العصر الحديث موضع احتفال الأدباء
 وعنايتهم . واتسعت هذه العناية في النشر فأصبح النشر أوكاد يصبح شعبياً خالصاً . فأصبح لازماً
 للكتاب أن يتروكوا الأسلوب القديم المسجع المعقد بعقد البديع ويأخذوا بالأسلوب المرسل .
 ويمدوا إلى السهولة والبساطة . ليوجدوا التطابق والتلاؤم بين أدبهم وبين القارئ الجمهور
 فلا تكون الصحيفة موضع سخطهم ولا ينصرف الناس عن قراءتها . لأن أكثر الذين يحاطبهم من
 العامة لا ترتفع أذهانهم ، ولا يعرفون العمق والصعوبة والتعقيد . وهذا الاتجاه الجديد أتاح
 للأدباء مجالاً لمرونة واسعة . فقد أصبح الكتاب أحراراً في التعبير عما في أنفسهم غير متقيدين
 بسجع ولا بديع ولا بأي صورة من صور التكلف اللفظي .

عمل الصحف في هذا الاتجاه أوسع وأعمق . لأنها تخاطب جميع طبقات الأمة بدون
 أي تمييز ، ولعل عنايتها بالطبقات الدنيا تزيد على عنايتها بالطبقات العليا . لأنها تريد الانتشار
 والقبولية في أوسع نطاق بين جمهور ولذا تحاول أن يفهموها ويستمتعوا بها حتى يطلبوها .
 وهكذا نرى أن جمهور القراء للكتاب بالنوعين المترجم والمؤلف ، أقل كثيراً من جمهور
 القراء للصحيفة . لأن الكتاب يخاطب الطبقات المثقفة التي تعرف القراءة . أما الصحيفة
 فخرصها أن تخاطب الكتلة الساحقة بين الأمة . من أجل هذا حاجة الصحفي إلى تبسيط
 الأسلوب والتفكير أكثر من حاجة مؤلف الكتاب إليه . فلا بد للصحفي أن يبسط فكرته ،
 إلى أقصى حد ، وإن كانت مرتفعة في نفسها . حتى تتضح أمام القارئ ، ولا يجدوا أدنى
 مشقة في فهمها وتصورها . وكذلك لا بد من صفاء اللفظ في الصحافة ، واختيار لغة سهلة
 يسيرة بها حتى تكون قريبة من الذوق البسيط السهل في الأمة ، ويكون باستطاعة القارئ
 أن يفهم ما يقرأ فيها ويعيه وعياً صحيحاً .

كان الأدباء يعرضون على الجمهور مقالات في الأدب العربي القديم وفي الأدب العربي الحديث، وكانوا مايزالون يبسطون في مقالاتهم حتى ينالوا القربة من أذهان العامة. وسرعان ما ظهر واضحاً أن الأدباء ينشئون لغة جديدة، بين العربية والعامية، تشمل على فصاحة الأولى وجزالتها وعلى سهولة الثانية وقربها من الأفهام. هكذا أثرت الصحافة المصرية في لغة الأدب المصري الحديث، بل نستطيع أن نقول أن الصحافة هي التي جدت هذه اللغة تحت تأثير الجمهور الذي تخاطبه. وبعد هذا نشأت محاولات جديدة لتبسيط الأساليب، ونجح الأدباء في هذه المحاولة إلى أقصى حد ممكن. فقد ألانوا اللغة القديمة ومرلوها وأتاحوا لها نمواً وسعة كبيرة وحادوا لا يبقون من الأساليب القديمة إلا ما وافق الذوق والفهم واللسان المصري العام.

بفضل الصحافة أتيحت الفرصة للغة المصرية الجديدة لأن تنتشر في مصر وفي جميع العالم العربي. فأقبل عليها الجمهور القارئ في البلاد العربية في الأردن ولبنان وسوريا والعراق والحجاز والسودان وبلاد المغرب. هكذا تفوقت اللغة الأدبية المصرية على جميع اللغات المتعاقبة لها، وأصبحت هي اللغة الشائعة في البلاد العربية. جعل هذا الأمر مصرز عاصمة الشرق العربي، وجعل لها مكانة ممتدة في الأدب والثقافة بين البلاد العربية. قرئ إنتاج الأدباء المصريين في البلاد العربية في الصحف، وفي الكتب، وفي الآثار المختلفة، فلم يبق الأدب المصري متاعاً خاصاً بالمصريين أو محصوراً بل أصبح متاعاً مشتركاً بين العالم العربي بأكمله. ثم تبع هذا الأمر أن شاعت اللغة المصرية العلمية في هذه الديار التي أصبحت سوقاً كبيرة لكل ما ينتجه الشعب المصري في الحياة العلمية والأدبية.

ومن ناحية ثانية، ألحقت الصحافة بين الحربيين، أضوار بالأدب من بعض الوجوه. فقد قيدت حرية الكاتب الشخصية، إلى حد ما، لأنه ما كان يستطيع الكتابة مخالفاً للرأي

الصحيفة. وقيدت حريته الأدبية، لأنه لا يستطيع الكتابة كما يريد. فيعده عدد دهر
 الصحيفة الذي خصص له، وليس له أن يزيد ولا أن ينقص سطراً. تحكم رؤساء التحرير
 للمصحف في الموضوع أيضاً. فعلى الأديب الكتابة في الموضوعات المقترحة التي كان يفرضها
 قلم التحرير. بالإضافة إلى هذه الأمور، فقد عملت الصحافة أيضاً على السرعة في الإنتاج
 الأدبي، حتى أصبحت هذه السرعة من أهم خصائصه. فالصحيفة لا تستطيع الانتظار
 فيلترسون بكتابة مقال بسرعة. وكما علمنا سابقاً عملت الصحافة على تخفيف أسلوب الأديب،
 حتى يكون أسلوباً صحيحاً يفهمه الجمهور بدون مشقة. دفع هذان العاملان جماعة من
 الأدباء إلى الإسراف في تبسيط الأساليب إلى درجة الابتذال، حتى يعجبوا الذوق
 المتواضع في الشعب وينالوا استعسانه، ولم يكفهم الوقت ليجودوا معانيهم وأساليبهم وليحققوا
 لمقالتهم ما يجب من جمال وروعة فنية.

ودخلت الإذاعة أيضاً في حياة الأدباء وترافقها هذه الضرورات الصحفية، لأن
 الوقت محدود، وأكثر الجمهور من الطبقات العامة ولعلها تتقدم الصحافة في هذا الأمر. لأن
 جمهور الصحف محدود إلى الذين يحسنون القراءة ولكن جمهور الإذاعة أوسع من عوز الصحافة إليه.
 القارئ والأميين. لهذا السبب عوز الإذاعة إلى التبسيط أوسع من عوز الصحافة إليه.
 جميع هذه الأمور أحدثت تغيرات جوهرية في الأدب العربي الحديث، لم يعرفها
 هذا الأدب قبل هذه الفترة الأخيرة، فنشأ أدب عربي صحافي واداعي ماسبق لأسلاف
 العرب أن عرفوه. وهذا الأدب أدب سريع ليس فيه عمق ولا تأمل ولا إبداع إلا ما يأتي
 عفواً. يتناول هذا الأدب جميع الفنون الشعرية العربية الحديثة من مقالة وقصة ومسرحية.
 وانطبع على كل منها طابع السرعة والمسافة القصيرة في الزمان والمكان.

قد وجدت بين أدباء العرب جماعة لم تترك المحاولة للاحتفاظ بحريتها وجودة

إنتاجها، قد تشترك في هذا الأدب السريع. فإنها، رغم السرعة، ودغم إكمال ضرورات الصحافة تسعى جاهدة أن تحتفظ لهذا الأدب بقيمة الفن السامية، ولا تريد النزول إلى الجمهور بل تريد أن ترفعه إليها، مسترشدة في ذلك بغايات الفن الرفيعة ومثله العليا من الخير والحق والجمال. وهذه الجماعة هي التي تحتل الصفوف الأولى في حياة المصريين الأدبية المعاصرة، وبالتالي في حياة العرب الأدبية المعاصرة، ويتمثل الأدب المصري بمعناه التام بهذه الطائفة أو بهذه الصفوف من الحياة الأدبية المعاصرة. يستقي هذا الأدب من مصدرين: الأدب العربي القديم والأدب الغربي الحديث.

أخذ يعبر هذا الأدب، بأثر الصحافة، عن حاجات أهله بوضوح، فعبّر عن الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعن الإصلاحات الدينية وغير الدينية. ووصلت الصحافة هذا الأدب بالآداب الغربية ودراساتها في شئون الحياة وحقائق العلوم والمذاهب الفلسفية. وأوجد لنا هذا الأدب صوراً أدبية جديدة من مثل المقالة والقصة.

يجب أيضاً أن أذكر هنا المجلات الدورية التي كانت الجامعات المصرية تصدرها كل عام منذ نشأتها، تعالج فيها كل كلية أبحاثها الخاصة.

شيوع روح الحرية الشخصية:

الحرية الشخصية من مميزات النهضة الحديثة. وأثرت تأثيراً كبيراً على آداب اللغة، لأنها إحدى صور النفس. خلقت العرب من بين الأمم أكثر حرية واستقلالاً في أفعالهم وأقوالهم وأفكارهم. ثم زالت تلك الصفة وماتت هذه الحرية بسبب الظلم والعسف الذي نزل بالأجيال الإسلامية الوسطى. فعند الدخول في القرن التاسع عشر كان العامة

يساقون كالأنعام لا يملكون إرادة ولا حرية ولا رأياً، ثم شاعت روح الحرية الشخصية في عصر النهضة الحديثة بسبب عدة عوامل.

البعوث العلمية التي أرسلت إلى أوروبا من جانب الحكومة المصرية، لتلقي العلم ساعدت على انتشار هذه الروح في مصر. وأرسلت أكثر هذه البعث إلى فرنسا. واتلاميذ الذين أرسلهم محمد علي في هذه البعث، بثوا هذه الروح في العنصر العربي، عملت على الإضافة في هذا الانتشار في سوريا بعد الحوادث التي حدثت سنة ١٨٦٠م، زيادة الاحتلاب بالأجانب والاطلاع على كتبهم. وخاصة ما يتعلق باستقلالهم وثوراتهم. ثم أحوال الدولة العثمانية التي كانت تزداد فساداً واضطراباً في ذلك الوقت أدت إلى المهاجرة. لأن الأحرار ألبوا الصبر على الظلم. وأكثر المهاجرين مسيحيون لأنهم أكثر اتصالاً وقربة بالأجانب وأوسع اطلاعاً على آدابهم العلوم الطبيعية مبنية على الحقائق المحسوسة. لهذا انتشروا بعد نقلهم إلى البلاد العربية جعل مكانة لهذه الروح في نفوس العرب. ثم انتشار التعليم من أكبر العوامل التي عملت على نشر روح الحرية والاستقلال. لأن هذا العامل بعث هذه الروح في الناشئة السورية. وازدياد الاتصال بالغرب وبالمدينة الحديثة ساعد على شيوع روح الحرية الشخصية. حلت هذه الروح القيود المتوارثة في الاجتماع والأفكار وقيود العقل. وأوجدت الرغبة في التخلص من التقاليد والعادات الفاسدة. وظهر عدة مطالب الإصلاح في المجال السياسي أو الديني أو الاجتماعي في العالم العربي العثماني. أحدث الإصلاح السياسي تغيراً في قلب الحكومة العثمانية، من الاستبداد إلى الدستور. والهاميون لهذا الإصلاح كثيرون، أشهرهم مصطفى فاضل (باشا) المصري، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وخليل غانم وغيرهم. وأشهر الهاميين للإصلاح الاجتماعي الشيخ محمد عبده المصري، وقاسم أمين. اتجهت هذه الروح نحو العلم وخاصة بعد أن شاع مذهب النشوء والارتقاء في

النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فتنبهت الأذهان إلى حرية البحث وتعليل الحوادث كما يبدو ويتبين للعقل. وبدأت آثار هذا التنبه في تعبيرات أكتاب في أي موضوع كتبوا فيه. يستثنى من هذه الحقيقة المحافظون على القديم الذين يتشبثون بأراء السابقين.

رفع شأن المرأة ونالت من الحرية والاستقلال والحقوق الاجتماعية في هذا العصر ما لم تنله قبله، بأثر الحرية الشخصية. فتحررت وصار لها شأن ودأى، فصار حالها مثل حالها في الجاهلية وصدر الإسلام. بدأت تطلب العلم، نبغت غير واحدة منهن في الأدب والعلم، عملت على إنشاء المجلات العلمية، والمجوعات الأدبية والجرائد السياسية. ساهمن في تأليف الكتب والوقوف للخطابة، طلبن علم الطب وعلم الحقوق. المسيحيات سبقن المسلمات إلى تلك الأمور لأنهن أكثر اختلاطاً بأسباب هذه المدنية. ولكن المسلمات أيضاً تأثرن بهذه الروح فنبغت منهن خطيبات وعالمات وكاتبات وأنشأت الجمعيات بعد أن كانت قد انحط شأنها في القرون المظلمة، حتى صارت كالمحتاج الذي لا يملك دأياً ينتبه إليه، أو صوتاً يسمع. أحاطت بها الشكوك وأصبح دأب الرجل سوء الظن بها. فقبجوا آراءها ونظموها القصائد ووضعوا الكتب في تحقيرها. عذبوها بحبسها والتضييق عليها.

تحولت طريقة الارتفاق بالأدب عما كانت عليه من قبل. فكان الأديب قبل النهضة ينشئ أو ينتج لإرضاء نفسه وميله أو لإهداء ما أنتجه من نموذج أدبي إلى أمير أو صديق. أما الآن فأصبح الأدب صناعة أو تجارة، يكسب أصحابها أرزاقهم بإقبال الجمهور على ستاعهم، بسبب شيوع الطباعة وتعدد النسخ وبيعها.

انتشار التعليم بعث روح الحرية والاستقلال في الناشئة السورية، فنبعثهم على المطالبة بحقوقهم وعلمهم الاعتماد على النفس والتفكير بلا قيد. ظهرت آثار هذه التربية سنة ١٨٨١م، حين طالب بعض التلاميذ في بيروت بحقوق مدرسية، فلم تجب مطالبهم. أدى هذا

إلى هجرة بعض هؤلاء التلاميذ إلى مصر وغيرها.

اتحاد التيارين العربي والغربي :

سجل للنهضة الأدبية الطويلة نصر مؤزر بفضل اتحاد التيار العربي بالتيار الغربي

اتحاداً تاماً متيناً بعد أن كانا يظهران منفصلين طوال الحقب السالفة .

لستطيع أن نرى آثار هذه الحقيقة واضحة في حياة الذين نزحوا إلى القديم العربي

الخالص مثل المنفلوطي والرائعي، ومع ذلك فقد تزودوا من الآداب الغربية المترجمة واستفادوا

منها لستطيعوا أن يوجدوا لأنفسهم صوراً أدبية جديدة بالتقدير من مواطنيهم . وعلمهم هذا

يدل على أنهم علموا تولد الرأي الأدبي العام عندهم الذي يكره التسكك بالنموذج القديم

الذي لا يلائم عصرهم وحياتهم، ويطلب النموذج الجديد الذي يطابق حياتهم وعصرهم . حتى

يكون بإمكان المواطنين تذوق جماله . من أجل هذا استعان المنفلوطي ببعض القصص المترجمة

أو بقصص ترجمت له . ليكتب ما جداولين وأقاميصه الأخرى .

بعض الأزهريين الذين ألفوا التيار العربي الخالص ونماذجه، نراهم يطلبون

اللغات الأجنبية ويتعلمونها، حتى يتعرفوا على صور آداب هذه اللغات، ويشتركوا في هذا

النطاق الحيوي الجديد.

كل هذا يعني التهام التيار الغربي بالتيار العربي داخل مصر بصورة لم يسبق

لها مثيل ولا نظير في تاريخ مصر الحديث . ودعم هذا الالتحام من نواحي كثيرة . فقد أنشئ

معهد للموسيقى وآخر للتمثيل، واستفيد من الفنون الجميلة .

رفعت الحواجز التي كانت تفصل المصريين عن الغرب وحضارته، وأقبل المصريون

على جواب هذه الحضارة المادية، حسب قدااتهم . إنها حقيقة لا مبالغة فيها أن الكثيرين

من المصريين لم يختلفوا عن الأوروبيين في المثل الأعلى للحياة المادية في شيء. نعيشوا على ما راج وشاع في الحياة الأوروبية من مرافق وأدوات الزينة والمظاهر المختلفة، واتخذوا الطريقة الأوروبية طريقة لحياتهم. ومما لا شك فيه أن هذه الأمور كانت لأهل المدن أكثر من كونها لأهل الريف. لكن هؤلاء أيضاً لم يكونوا محرومين من أثر هذه الحياة، فاستفادوا من وسائل المواصلات الأوروبية من القطارات والسيارات. يدل ذلك على حلول صور غربية جديدة محل صور من حياة المصريين المادية القديمة وزوال الأخيرة، وأن الأولى اتسع احتلالها في حياة أهل المدن وبين الطبقات المثقفة. فحقاً تغيرت الحياة المصرية المادية بأثر الحياة المادية الأوروبية، وأصبح المصريون يدركونها ويفهمونها على اتجاهات جديدة، ما عرفها الآباء من الأسلاف، لا معرفة محدودة.

وحدث في حياتهم المعنوية ما هو أعمق مما سبق وهو أنهم أنشأوا البرلمان، وأخذوا بالطريقة الأوروبية الديمقراطية في سياستهم، فنشأت الأحزاب، ومشوا على النمط الأوروبي في قضائهم واقتصادهم. وحدث ثلها في حياتهم العسكرية وأسلحتهم ونظمها الحديثة. والقول بأن حياة المصريين المعنوية على اختلاف صورها ونظامها تجري منذ نهاية الحرب العالمية الأولى على الطريقة الغربية لا يفوق عن الحقيقة.

وما حدث في حياتهم العقلية يشابه ما ذكر أو أكثر منه، فقد نشروا التعليم بين الطبقات كلها، قاموا بإنشاء جامعة القاهرة، وفتحوا بالإضافة إليها ثلاث جامعات أخرى: جامعة عين شمس، جامعة الإسكندرية، جامعة أسيوط. في هذا التعليم نبذوا مناهجهم الموروثة إلى المناهج الغربية الحديثة وعلمهم الموروث إلى العلم الغربي الحديث. قام بهذا العمل صفوة من الأساتذة المصريين في الجامعات بالتعاون مع صفوة من العلماء الغربيين. أقبلوا على تعلم اللغات الأجنبية المختلفة، فتجاوزوا تعلم الإنجليزية أو الفرنسية فقط، كما كانوا في

بداية القرن العشرين، إلى تعلم اللغات الأجنبية الأخرى من الألمانية والإيطالية والإسبانية. وهذا ما لم يكن لهم عهد به من قبل. اتصلوا بالحضارة الأوروبية من جميع أبوابها ودعوا بها اللغوية، فبلغ الحال إلى أن صار بين العلماء المصريين من ألقوا المحاضرات في الجامعات الأوروبية والأمريكية وشاركوا مشاركة فعالة في التراث العقلي الإنساني.

تطور الحياة العقلية للمصريين، هذا التطور الذي ما ألفوه من قبل، مثلاً عقولهم ونفوسهم بصورة جديدة. هذه الصور عملت على دفع أدبهم المصري إلى ما يشبه الانقلاب. لم تعد المقاييس النقدية هي المقاييس القديمة، بل تغيرت وتطورت الحياة الأدبية تطوراً واسعاً بفضل الطائفة المجددة التي ألفت الآداب العربية والأجنبية، واتخذت منهما مثلاً أدبية جديدة لنفسها، ملائمة للذوق المصري المعاصر والحياة المصرية الحديثة التي كادت أن تتغير تغيراً تاماً.

لمعرفة مدى عمل اتحاد هذين التيارين العربي القديم والغربي الحديث، الذين يؤلفان الثقافة المصرية والأدب المصري، في الحياة الأدبية المصرية نرى كيفية تأثيرهما أو الاستفادة منهما. أخذ المصريون ينظمون التيار العربي القديم ويخضعونه لمناهج الأوربيين من المستشرقين الذين سبقوهم إلى نشر تراثهم نشرًا علميًا. وكانت الحاسة اللغوية الدقيقة معدومة عندهم، فاصطبغوا مناهجهم وسعوا وعملوا في سبيل إحياء نصوصهم القديمة بسليقتهم العربية الموروثة. قاموا بنقد ما وعرضها وتحليلها وتقريرها من نفوس أصحاب الثقافة وقلوبهم وعقولهم. هكذا عملوا على استغلال هذا التيار القديم بأوسع مما استغله الأسلاف في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. تملكوا حياة القدماء من شعراء وكتاب، فأصبح إحساسهم بهذه الحياة كإحساس القدماء بها، وأصبحوا يثرون بها في حياتهم الأدبية بعمق. وكان تأثير التيار الغربي في هذه الحياة أعمق وأشد، لأن الجامعات المصرية نظمت

الحياة العقلية المصرية تنظيماً واسعاً. نتجت عن ذلك نشأة أجيال متخصصة في جميع فروع العلم الغربي والأدب الغربي قديماً وحديثاً.

النتيجة الأولى لهذا الأمر أن اكتسبت العربية القدرة على أن تكون لساناً لكثير من ألوان العلم الأوربي، وظهر طبقة من العلماء بين المصريين تحسن التعبير العلمي، وتضيف إليه بفضل نحو التيار العربي إحساناً واسعاً للتعبير الأدبي. نرى بهذا التعمم الأدب بالعلم عند المصريين. فلم يكن مجال لشكوى سلامة موسى في مقاله ضد الرافعي، فقد أصبح عند المصريين جيل من الأدباء المتخصصون في العلم. أذكر أسماء بعض منهم، على سبيل المثال فمنهم الطبيب مثل إبراهيم ناجي وأبي شادي وكامل حسين. وعلى محمود طه في الهندسة، وعلى مصطفى مشرفة في الرياضيات، وأحمد زكي في الكيمياء، ومحمد عوض محمد في الجغرافيا. يتضح من هذا أن الأدب المصري أصبح متعاوناً مع الثقافة العلمية تعاوناً واسعاً.

حدث مثل هذا في القانون وفي الفلسفة، خرجت كلية الحقوق غير كاتب وخاصة في المجال السياسي والصحفي، وكلية الآداب غير متفلسف. لا نجد في بداية القرن العشرين متفلسفاً عند المصريين غير لطفي السيد الذي عني بفلسفة أرسطو ليس. وبعده أصبح لديهم جمهور كبير لم يقتصروا على دراستهم لأرسطو ليس ولا على دراسة الفلسفة اليونانية. بل بسطوا دراساتهم على كل الإنتاج الفلسفي الأوربي والأمريكي. وأصبح المصريون يحيطون بإحاطة دقيقة بنظريات علم الاجتماع وعلم النفس الحديثة وما يقال في الشعور والاشعور أو العقل الباطن.

النهضة الأدبية الحديثة والنثر الحديث

تطور النثر الحديث:

اللغة.

هنا نرى تطور النثر العربي من بداية عصر النهضة الحديثة . علمنا سابقاً أن الأدب العربي، قبل هذه النهضة ، كان يمر بدور قد أصابه فيه ضعف شديد وركود والمخاطب . بقي الأدب على هذه الحالة في العصر الأول من النهضة الحديثة، أى طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر. فلم يتغير فيه شئ. والشعر سبق الإنشاء إلى النهوض! سبب هذا الجمود يرجع إلى حالة البلاد السياسية بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر والأوضاع في عهد محمد علي. حيث أن الاتصال بالغرب قصر في البداية على الجوانب العلمية والفنية والتطبيقية. أما من الناحية الأدبية فكان الاتصال كالمعدوم. ومن أهم أسباب هذا الجمود عدم شعور مصر بوجودها شعوراً محققاً. وكان ذلك بسبب موقف محمد علي مع الشعب المصري، حيث عني بكتب هذا الشعور. وأكبر دليل على هذا أنه كان يستعين في المناصب الكبرى بالأتراك، دون المصريين، ولم يسمح لهم بتولى هذه المناصب، ولم يشركهم في الشورى في الحكم. كان يقدم اللغة التركية على اللغة العربية في ما يطبع في

مطبوعة بولاق من كتب وآثار وفي دواوينه ومنشوراته. وبلغ حال اللغة العربية في هذا العصر إلى أن التحدث بها بين طلاب المدارس كان سبة حتى عهد عباس الأول. وهكذا بقي الشعب بعيداً عن اللغة العربية، وظلت لغة هذا الشعب متخلفة، لعدم وجود بواعث سياسية أو قومية تبعثها على النهوض والتطور. فبقيت على عهودها السابقة، جامدة، مثقلة بالسجع والبديع، وضيقة. ونرى ظهور طبقة من كتاب الدواوين لم تختلف في شيء عن روح كتاب الدواوين المتأخرين مثل القاضي الفاضل وطبقته. فنجد كتابة هذه الطبقة في المنشورات والتقارير بأسلوب السجع، ونجد فيها أيضاً أغلال الجناس والطباق وغيرها من أغلال البديع. أحد هؤلاء الذين يمثلون هذه الطبقة عبد الله فكرى. ثم أخذت تنشأ طائفة جديدة، حذقت اللغات الأجنبية وبدأت تقرأ في آدابها، وتفهم وتتذوق ما تقرأ، وتستمتع به. خير من يمثل هذا الجيل رفاعة الطهطاوى. فحصل على تعليمه في الأزهر، ثم قاد البعثة الكبرى الأولى لمحمد على. وزاد فتعلم وأتقن اللغة الفرنسية. في أثناء مكوثه في باريس شرع في وصف الحياة الفرنسية من جميع جوانبها المادية والاجتماعية والسياسية في كتابه الذى سماه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". وبعد عودته إلى مصر اشتغل بالترجمة فترجم آثاراً مختلفة من اللغة الفرنسية مع تلاميذه. ثم عين في منصب مدير لمدرسة اللسان. رفاعة وتلاميذه اتصلوا بالآداب الغربية واستفادوا منها فكتبوا المعاني الأدبية الأوربية، ولكنهم مع هذا لم يتحرروا من السجع والبديع. ويمكن أن نعتبر هذه المرحلة هي بداية النهضة الأدبية المصرية، لكنها بداية مضطربة. فكانوا يقرأون ما يقرأون من الآداب الأوربية في لغة يسيرة سهلة، ثم ينقلونها إلى اللغة العسيرة الصعبة ويملاؤها بأنواع التكلف الشديد، حتى تصبح شيئاً مبهماً، يصعب فهمه. قراءة هذه الكتابات التى أعدتها هذه المدرسة الأولى تشع القارئ بضيق، لأنها لا تخاطبه مباشرة ولا تستطيع. فبين هذه الكتابات وبين

قارئها حجاب صفيق . جميع الأدباء المصريين حرصوا على مثل هذه الكتابات وتعصبوا لها . بل لم يكن في استطاعتهم التعبير عن أى شئ إلا بها ، وكأن ألسنتهم جمدت عندها .

وهكذا مرّ النصف الأول من القرن التاسع عشر وجزء غير قليل من النصف

الثانى . لم يملك المصريون إلا هذه الوسيلة الضيقة للتعبير الشرى التى تحول بين الكاتب

وبين التعبير الحر عما يريد كتابته . ولم يستطع التيار الغربى تحريره من هذه الحدود والقيود .

مع التقدم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر اجتمعت دوافع حقيقية لانفكاك

النثر وتحرره من هذه القيود الغليظة . نرى ظهور أمور كثيرة . بعضها متشابهة جدت ، عملت

مع أخرى كانت مختلفة فظهرت . وهذه الأمور غيرت الحياة تغييراً تاماً .

أول هذه العوامل نشوء الرأى العام وظهور فكرة الوطنية وشعور المصريين بحقوقهم

السياسية المسلوبة . كان قد تولد عندهم الشعور بهذه الحقوق فى عهد محمد على . ورغم سعى محمد

على فى أن يमित هذا الشعور ظل مختلفاً . دخول المصريين فى جيش محمد على عمل على إبقاء هذا

الشعور فى نفوس المصريين . فعند انتصار هذا الجيش فى حرب كان المصريون يشعرون بأنفسهم

وبمصريتهم . بالإضافة إلى هذا ، تعلم المصريون وفودهم على أوروبا فى البعث ، ورؤيتهم حياة

سياسية مخالفة لحياتهم من العوامل التى عملت على إبقاء هذا الشعور . فعلى سبيل المثال نرى

اناس فى فرنسا يشتركون مع الحاكم فى الحكم وفى إدارة أمور بلادهم ، ولا يحكمهم فرد مستبد . وقد

كشف دفاعه فى كتابه "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" عن هذه الفروق السياسية . وأشار إلى

أن فرنسا تحكم بدستور وضعه وصممه الشعب . ومما زاد فى شعور المصريين بأنفسهم كشف

اللغة الهيروغليفية وتبينهم لتاريخهم القديم . الذى جعلهم يشعرون بالعزة والألفة فطلبوا

الحياة الحرة الكريمة .

عندما رأوا طريقة اسماعيل المحفوفة بالخطر فى الحكم التى تؤدى البلاد إلى الوقوع

فريسة في أيدي الغربيين وسياسته المالية السيئة، أحسوا بضرورة التحرر أولاً من الحاكم المستبد الذي لا يحسن تدبير الشؤون، وثانياً من الترتك الذين هم حاشيته، والذين يسيطرون على المناصب الكبرى في الجيش وخارجه، وشعروا بحقهم في أن يعيشوا أحراراً. وفي الحقيقة بدأوا يضعون بلادهم الشباب من صندوق دين ومن مراقبة مالية وأيضاً مستشارين ماليين وغير ذلك.

كذلك تولى المصريون أيضاً في دينهم وما بلغت إليه حالة المسلمين من ضعف والخلل. فهم في بعض بلدانهم في ولاية الغرب، والخدمة الإسلامية في تركيا على قرب الانقضاء. فرأوا وجوب الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى، حتى يتخلص الدين الإسلامي من الأوهام والخرافات التي تعلقت به. رجعوا إلى كتب الإسلام القديمة وكتابات المسلمين في العصر العباسي فدرسوها. وهذا التحول تحول مهم. وظهر المطبعة مكنهم من الاطلاع على المصادر الأولى في الأدب.

فتحت قناة السويس. فأثر ذلك في نمو شعور المصريين بقوميتهم وأن لهم مكانة في العالم وعلاقاته الاقتصادية، وأيضاً أثر في أذواقهم وعقولهم. اشتد اتصال المصريين بالغرب منذ عصر اسماعيل. فحدثت عوامل عديدة ساعدت على هذا الاتصال. منها كثرة المدارس، فتح أبواب التعليم العالي على مصاريعها، تأسيس الأوبرا إقامة دار الكتب للقراءة والاطلاع المنظم. فجميع هذه الأمور بعثت في مصر نهضة غيرت الأذواق، وأعدتها لتطور واسع في المجالات الأدبية. وبعثت في المصريين روحاً جديدة على قراءة النماذج القديمة، التي هي جديدة بالاحتذاء والتقليد، والتأثر بها. وهذه النماذج وراء ما يقرأون في الدين والأدب.

ترجمت الآثار الأدبية الغربية إلى العربية. والسوريون واللبانيون الذين كانوا

شديدي الاتصال بالأدب الأجنبية، هاجروا إلى مصر واشتركوا في هذا العمل فعبروا عن صلحتهم بهذه الآداب بطريق الترجمة. فأصبحت مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل

القرن العشرين حقلاً واسعاً لنقل الآداب الغربية والترجمة. فترجمت مواد كثيرة، منها القصص والروايات وكتب في جميع فروع الفكر الغربي مثل الاجتماع والقانون والاقتصاد. وفي عصر إسماعيل اجتمعت عوامل عديدة للنهوض بالصحافة.

احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢م، والحركة الوطنية التي كانت تصدر عن روح الأمة، أثناء هذا الاحتلال وما صاحبها من عمل الترجمة أو من التيار الغربي الذي اشتبك في مجرى الحياة الأدبية كان مصداً خصباً لنشاط أدبي من حيث اللغة.

فطبيعي أن يهجر الأدباء اللغة القديمة التي كان يستخذونها رفاعة الطهطاوى وأن يتركوا سعقاتها من سجع وبديع، متأثرين بالعوامل التي دفعتهم إلى هذا. لأن هذه اللغة القديمة لا تلائم للعالي الغربية الكثيرة التي يترجمونها. ومن ناحية أخرى لا تلائم الذوق الشعبي المتواضع الذي يخاطبونه بكتاباتهم. وإنما الذي يكمل هذه الحاجات هو الأسلوب الحر الطبيعي. لكننا لا نستطيع أن ندعى تحورد اللغة تماماً من هذه العوائق. فقد وجد قليل من المحافظين الذين تشبهوا في كتابتهم بالسجع والبديع، فظلوا ينتجون آثاراً تخضع لذوقهم بعيدين عن الأسلوب الفصيح في القرن الماضي وفي أشواط من هذا القرن العشرين.

وقد وجد من تار على اللغة العربية لا في صورتها المعقدة عند أصحاب السجع والبديع فقط، بل أيضاً في صورتها السهلة الميسرة عند الذين يكتبون بالأسلوب المرسل. أصحاب هذا الرأي أداوا استخدام اللغة العامية مكان الصورة الأولى والثانية. ونرى القوة في هذا الاتجاه عند الذين تتقنوا بالآداب الغربية. والسبب في هذا أنهم رأوا هؤلاء الأدباء الغربيين يتركون اللغة اللاتينية، التي كانوا يعبرون بها، في عصر النهضة، وينشئون آدابهم المختلفة من فرنسية وإنجليزية وغيرهما بلغاتهم المحلية. فوأمزلة لغتهم القديمة عندهم كنزلة اللغة اللاتينية للأوربيين. فحنيل لهم أن لن يقدر لها البقاء، فمن اللازم أن

يؤتى بمكانها باللغات العامية في البلاد العربية المختلفة. ولم يشعروا بأى صلة بينهم وبين لغتهم القديمة، وأحسوا بضيقتها للتعبير الحر الطليق عن عواطفهم ومشاعرهم، وأيضاً بعجزها عن أداء كثير من المعاني الغربية التي يريدون أداءها. كان محمد عثمان جلال من ضمن الذين دافعوا عن هذا الاتجاه. وهو ترجم بعض روايات مولير إلى اللغة المصرية الدارجة. فامتدت هذه الدعوة. ولا يزال الحاميون لهذا الاتجاه إلى الآن.

ولكن هذه الحركة لم تنجح في ذلك الوقت لأسباب سياسية ودينية وأدبية خالصة. دعا إليها بعض الإنجليز في محاضرات عامة في مصر، وأيضاً في بعض كتاباتهم، ودعا إليها بعض المستشرقين. فبسبب دعوة العدو إليها أحس الأدباء والشعب خطراً فيها، فاعتبروها كارثة سياسية في حالة كونها صحيحة يريد بها المحتل أن تنسى الأمة ماضيها العربي والإسلامي وتبتعد أو تنقطع عنه. ثم كان صعباً على الشعب، لأن لم يكن مستحيلاً، أن يتحول عن اللغة المقدسة التي هي لغة القرآن الكريم. فإن كان الشعب لا يحسن هذه اللغة، أحس بواجبه أن يسعى إلى إحسانها. وكثرة الأدباء رأيت أن لا تنزل إلى لغة الشعب، حتى يبقى لها التفوق اللغوي الذي يفصل بينها وبين العامة. وربما كان من أهم الأسباب أن هؤلاء الأدباء من صحفيين وكتاب ومترجمين استطاعوا أداء جميع ما أرادوا أدائه باللغة الفصيحة، فأثبتوا براعة وجمال هذه اللغة وقوتها لتحمل المعاني. نتيجة لهذه الأسباب لم تنجح الدعوة إلى استخدام العامية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الأدب واقتصرت على الصحف الفكاهية التي لا تزال تخرج بها إلى الآن. وكذلك لم ينجح الاتجاه المحافظ على أسلوب السجع والبديع. وإنما الذي انتصر وغلب هو الأسلوب العربي المرسل، وهو الأسلوب الجديد. ولدار العلوم التي أنشأها على مبارك دور هام في تعليم هذا الأسلوب الذي ارتضته مصر، فهذه المدرسة قامت بما عجز عنه الأزهر في تعليم العربية وبما أريد منها في هذا

الطور من التحرر في اللغة واللا انطلاق من الأسلوب المسجع المعقد . فكان القصد من إنشائها تعليم المصريين العربية بأسلوب يتمشى مع النهضة الحديثة . وعلماء الأزهر كانوا محافظين ومرتبطين بأسلوب السجع والبديع وكتب النحو المعقدة . كانت هذه المدرسة تخرج للدارس المدنية طائفة من المعلمين ، الذين يسهلون العربية على الطلاب ، ويهيئونهم لهذه الدورة الجديدة تهئية صالحة .

بعد الحرب الأولى انتقل المصريون إلى دور جديد ، اضطرا الإنجليزية أن يستجيبوا إلى مطالب الشعب ، ووضعوا فيه دستوراً لهم وأقاموا برلماناً . وتغيرت الحياة من جميع النواحي تغيراً عظيماً . فقد أصبح المصريون يعيشون سبقتين إلى حد ما ، أخذوا يستردون حريتهم وينشرون التعليم . نشأت الأحزاب وتصارعت ، تأسست صحيفة لكل حزب ، فظهرت فيها هذه الخصومات التي وجدت بين الأحزاب . ودعت الصحف الأدباء للكتابة فيها ، هكذا دخلوا في هذه الخصومات السياسية الحزبية ثم نقلوها إلى معارك في الأدب .

اشتدت هذه الخصومات فحمل لواءها نفر جديد من الكتاب وهو ليس جديداً خالصاً . بل وجدت بعض أسمائه قبل الحرب مثل العقاد والمازني وهيكل وطه حسين بما قدم العقاد والمازني من تجديد واسع في الشعر ونقده وبمحاولة هيكل في القصة وطه حسين في السيرة التاريخية . وكان في هذا التجديد يهدمان نموذج الشعر عند جماعة النهضة من مثل شوقي وحافظ وكانا يقيمان نموذجاً جديداً . وبعد حصول مصر على حريتها بعد الحرب اشتراك العقاد والمازني في تأليف كتاب "الديوان" . في هذا الكتاب نقد العقاد شوقي بشدة ، والمازني نقد شكري ، ثم نقد المنقوطة وأسلوبه نقداً ثائراً . فقال عنه أنه ضعيف التقامة وأن أسلوبه لفظي خالص ، يخلو من المعنى ومن فكرة ذات بال . ورأيه عن أسلوبه أنه ناعم وفارغ لا يحوى غير العبرات والدموع . هذا النقد يعود إلى تغير المثل الأعلى في الكتابة . لأن الكاتب في

هذا العصر الجديد لا يرضيه الأسلوب الجزل الرصين فقط بل يقتضى مع هذا الفكر الراسع الذى يوطد ويهدد للتعبير الدقيق عن الخواج النفسية ودرجات الإدراك الفكرى. ولكن المازنى لم يوضحه تماماً. ثم شرع المازنى فى إثبات هذا الاتجاه فى النشر بتراجمه لنماذج أوروبية تارة وبصوغ نماذج عربية جديدة فى القصة وغيرها تارة أخرى. وللعقاد أيضاً جولات واسعة مع مصطفى صادق الرافعى فى هذا المجال وكان لا يجب بالعقاد ولا بأدبه. فكان محافظاً شديداً فى موقفه هذا وحمل راية القديم فى هذه الفترة اثارة من الحياة الأدبية بسبب الظروف المحيطة به.

فى سنة ١٩٣٣م كتب الرافعى رسالة عتاب على النمط القديم ذى السجع وأرسلها إلى صحيفة "السياسة". وكان هيكل رئيس تحريرها، وكان يكتب فيها طه حسين بعد عودته من بعثته متأثراً وستمداً فى كتابته من مقاييس النقد الغربى وبمثلهم الأدبية، أنتجت هذه الرسالة ضجة لأن الرافعى قذف بها على مخالفه فى معسكرات من معسكرات التجديد. ثم أظهر طه حسين رأيه فى هذه الرسالة وقال عنها أنها لا تلائم الذوق الأدبى الحديث. وبدأت بينهما معركة حادة فكل منهما يدافع عن موقفه ويرى حريته به. وطه حسين هو صاحب الذوق الحديث الذى تغير تماماً. وأصحاب هذا الذوق رأوا التعبير عن الحياة تعبيراً حراً طبيعياً واجباً ولم يروا فى الاستعارة من الغربيين بعض معانيهم وأساليبهم بأساً مادام هذا لا يفسد جمال اللغة العربية وروعها.

فى نفس الصحيفة كان يكتب طه حسين مقالات عن أبى نواس ومجونه وسمى عصره عصر المجون والزندقة. وشارك كثيرون على عمله هذا لأنهم رأوا فيه تشويهاً للقرون الثانى الهجرى الذى عاش فيه أبو نواس. فهنا حدثت خصومة عنيفة بين هؤلاء وبين الطائب. ثم تحولت المسألة من أبى نواس وهوفرد واحد إلى القديم والقديما جميعاً وما يقولون. فكان الاختلاف بين قبول كل ما يقولون وبين عرضه على الامتحان. ورأى طه

حسين يذهب إلى الأخذ بموقف العرض والمناقشة والبحث والنقد لأنه يرى أن الأحكام التاريخية في الأدب أحكام إضافية وينبغي ألا نلغى عقولنا وطباع الأشياء.

في أثناء هذا كتب سلامة موسى مقالاً في "الهلال" عن مصطفى صادق الرافعي، حيث جعله مثلاً للقديم وهاجمه بشدة. كان أساسه في هجومه هذا أنه يحسن الصنعة لكنه لا يحسن الفن، أو بعبارة أخرى يحسن التعبير ولكنه لا يحسن تصور المثل الأعلى في الأدب. وهاجم سلامة موسى في مقاله القديم جملة، لأن الأدب العربي السابق كله في رأيه، لا يصلح لحياتهم المعاصرة بسبب الرقي العلمي الحديث الذي حدث في هذا العصر فهو يرى أن تغير الحياة العلمية والمادية يقتضي تغير الأدب لأنه يقتضي قبل هذا تغير الشعور والعواطف وتغير التعبير عنهما. فهو يتميز في هذه المرحلة من الأدب المصري بعد الحرب الأولى بثورته الغنية. فهو يدعو إلى الانغمار في التيار الأوربي بكل ما فيه من نظم سياسية وعلم وأدب دعوة قوية. وكتب في هذا الموضوع مقالات وكتب كثيرة، وأخرج صحيفة باسم "المجلة الجديدة" يشيع فيها تعاليمه بين الشباب. ولأنكاد نرى ظهور مذهب أوربي في علم أو سواه لم ينأ عنه ولم يتقدم الصنف يدعو إليه دعوة حارة. استمر يدعو إلى سباده بإخلاص وحرارة إلى الأيام الأخيرة من حياته، لكنه ذهب إلى التطرف في دعوته وخاصة من حيث اللغة، فيريد نبذ الإطار القديم جملة والتخلف في اللغة. ولا يرى بأساً في جعلها أقرب إلى العامية التي تستعمل للتعبير في الحياة اليومية.

كان سلامة موسى وحيداً في هذا الاتجاه، لأن الأديباء المحدثين الآخرين مثل طه حسين وهيكل والعقاد والمازني كانوا يقفون مع الأسلوب الفصيح الرصين المجزل، حتى يكون لأدبهم موقع حسن في القلوب والأسماع. فكانوا يجددون مع الحرص على الإعراب وعلى الألفاظ الصحيحة التي تقوها العاجم. فلا يخرجهم تجديدهم عن أصول العربية وإنما يفيدوها وينميها بسبب

ما يضيف إليها من نماذج جديدة وفكر جديد.

هذا الاتجاه يقوم على التطور والتحول مثل تحول وتطور الآداب الأوروبية التي

لم تقطع صلتها بالقديم وأضافت التجديد على صلتها بالقديم وتطورت من جيل إلى جيل. وهذا الاتجاه هو الذي ثبت واستقر في الحياة الأدبية المعاصرة المصرية.

وإذا كان سلامة موسى بلغ في تطرفه في التجديد إلى أن أراد قطع الصلة

بالقديم فقد كان الراجح يقف له بالمرصاد ورد عليه في صحيفة "الهلال" ردًا منفتحاً، لكنه أدخل الدين في كلامه مع أنه لم يكن متصلاً بموضوع الخصومة. كان قصده من هذا العمل جعل قضية التجديد قضية دينية ليأخذ في حمايته أناساً كثيرين. وقال أنه لا يدفع التجديد في الأفكار والمعاني، وإنما ينكر التجديد في اللغة، إنكاراً شديداً.

اشترك في هذه المعركة طه حسين بتأييده لسلامة موسى في التجديد من

الناحية العامة كما قام بالرد على الراجح قوله عن المجددين أنهم يحسون أو يفكرون أن يمسا اللغة بتجديدهم. فهو نفسه وكثير غيره من المجددين يكتبون بأسلوب عربي فصيح غير منحرف عن الاستقامة. وكان الراجح قد تعرض للحضارة الغربية وهاجمها في مقاله فرد طه حسين هذا الهجوم وقال عن هذه الحضارة أنها غنية.

نجد كثيراً من المقالات لطه حسين في هذه النواحي، فأحياناً يتحدث عن القديم

والجديد، وأحياناً يتحدث عن الذوق الأدبي وتجديده. قام طه حسين ببحث الشعر الجاهلي على أساس مذهب "ديكارت" الغربي القائم على الشك. فالأصل في هذا المذهب الشك في الأشياء ثم قبولها بعد بحث واستحسان. وتأثر في هذا بكتابة الأوربيين عن إياذة هوميروس وشكهم في حقيقة الذي نظم هذه القصيدة القصصية الطويلة. ففي رأى البعض هذه القصيدة نتيجة نظم شعراء مختلفين. فحاول طه حسين تطبيق هذه الدراسات في الشعر اليوناني القديم على

الشعر الجاهلي وأخرج في هذا كتابه "في الشعر الجاهلي" ثم أعاد نشره باسم "في الأدب الجاهلي". ويوضح في هذا الكتاب كثرة الالتحال في الشعر الجاهلي، وأن شعراً كثيراً دخل فيه من خارجه. أحدث هذا البحث ضجة واسعة في الناس وفي البرلمان بسبب ما احتوى من آراء جديدة. وكتب الرافعي وغيره كتباً في الرد على هذا البحث، وكثر الجدل حوله. ولكن طه حسين ثبت في هذه المعركة على موقفه، ونحن ثبوته هذا لا يداناً بنجاح مقاييس النقد الجديدة، ليست أوربية خالصة. الأدباء المصريون المجددون كانوا يقرأون الأدب والنقد الأوربيين والعربيين، لهذا استطاعوا الجمع بين هاتين التريقتين، واستخلص مقاييس جديدة لأنفسهم، ليست أوربية خالصة ولا عربية خالصة. وإنما هي مصرية. وهذه المقاييس تصور لنا ما كسبته مصر واستفادته من التباد الغربي ومن التيار العربي القديم، وأيضاً ما كسبته من الحرية الجديدة بعد الثورة الوطنية الأولى. وهذا يعني أن هذه النزعة المجددة ما كانت هدماً للقديم، بل كانت بعثاً له وتنمية في أشكال جديدة. وظل اعتماد المصريين في الأدب والنقد على عنصرين متكافئين وهما المحافظة على أحياء القديم والاستفادة من الآداب الغربية.

نتج عن هذا تغير مقاييس النقد عند المصريين بالقياس إلى ما كان من قبل الحرب. نجح العقاد والمازني في أن يؤصلا بعض القواعد النقدية في الشعر في أثناء العشرينات من القرن العشرين. لكنها كانت حينئذ يعتمدان كثيراً على طريقة النقد اللفظية. وهذه طريقة قديمة، تحلل العبارات والألفاظ وتبحث في السرقات. وتطورا بعد الحرب وتطور منهجهما النقدي. وبعد التطور أصبحت الأصول العامة هي أساس النقد عندهما وأكثر من الحديث في الحديث والقديم والذوق الأدبي. العقاد والمازني ومعهما طه حسين، هيكل أيضاً درسوا كثيراً من شعراء العرب القدماء على أصول النقد الغربي وقواعده. وأضافوا إلى هذه الدراسة تحليل آثار أدباء الغرب وإصدار الأحكام عليهم. ولا يستمدون هذه الأحكام فقط من الباحثين الغربيين، بل في

أغلب الأحيان يستمدونها من أذواقهم المصرية الجديدة وأيضاً من مثل أدبية أتاحوها لأنفسهم.
هذه المثل مزيج من الآداب العربية القديمة والأوربية الحديثة.

هكذا اصهار نقد مصري ومقاييس أدبية مصرية، وهنا نرى ظهور صراع حاد
بين هذه المقاييس الجديدة والمقاييس القديمة. فالبعض تشدد دوا في التقيد بالقدماء.
ظهر هذا الاختلاف في شكل معارك حادة بين الرافعي وطه حسين من ناحية، وبين الرافعي
والعقاد من ناحية ثانية.

عند دراسة آثار الرافعي نجد محاولة التجديد، تعبيرة عن معان حديثة في العواطف
والجمال والحب والبغض في مقالاته وكتبه يدل على هذه المحاولة. كان يتعمق في هذه المعاني
إلى حد بعيد، فتسرب الغموض إلى بعض أساليبه. لهذا السبب لم يكتب له إعجاب الناس
به كثيراً، بل انصرف عنه كثير من الشباب إلى خصومه المجددين الذين ملكوا القدرة على
التعبير عما في نفوسهم وعقولهم تعبيراً حراً سهلاً بسبب ما تتقنوا به من الثقافة العربية
والغربية. بحيث لم يتقيدوا في هذا التعبير بألفاظ القدماء وأساليبهم، وإنما احتفظوا بإطار
لغوى عام، وبعد هذا عملوا على تكييف اللغة بأشكال مختلفة. فنقلوا بعض الأساليب
الغربية و اخترعوا بعضها.

لأنستطيع أن ننكر ما للهؤلاء المجددين من فضل في إحداث مرونة واسعة في
اللغة العربية. وبدأ أعددهم يزداد. فاشترك معهم عناصر من الذين حذقوا اللغات
الأجنبية وفهموا الآداب العربية أيضاً في وضوح مثل توفيق الحكيم ومحمود تيمور وغيرهما من
الذين حولوا صلابة اللغة العربية إلى اللين والعذوبة.

هكذا ملك المصريون بين الحرب الأولى والحرب الثانية أدباً جديداً، الذي لم
يقتصر على مقالة أو قصة غير كاملة السأليف. بل صارت المقالة في هذا الأدب أكثر غنى وتنوعاً

فى السىاسة وفى الأدب . وأصبحت قصص ومسرحيات كاسلة التأليف . فبها الحبكة والعقدة والتسلسل الروائى الدقيق . كل هذا مظهر لأدب مصرى جدد فى لغة عربية فصيحة .

هذه الحركة المجددة ليست حركة هادمة للقديم العربى بل هى بانية عليه فى اللغة ' وأيضاً فى الموضوع ' كما سيبتين فيما يلى . تبنى على القديم العربى فى اللغة باحتفاظها بإطارها العام . هذه الحركة عملت جهوداً واسعة لاستطيع تصورها . ولا يقل أهمية تمرين اللغة المصرية الحديثة على التعبير عن أغراض وحياة الأدباء فى سهولة وبساطة وجعل شخصية متميزة بها . فوجود أدب مصرى نبت فى وطن مصرى ، على أيدي طائفة من المصريين ، حقيقة لا غلوف فيها .

الموضوع .

رأينا جمود الأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ثم رأينا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأثناء الاحتلال الإنگلىزى ظهور أسباب عملت على تغير الأدب العربى من حيث اللغة ، وهذه الأسباب أثرت عليه من حيث الموضوع أيضاً .

بدأ الأدباء فى تمرين كلمات هذا الأسلوب الجديد الحر الطبعى الذى اتخذته أغلبيتهم بعد حدوث التغير ليجعلوها قابلة لأن تحمل الآداب والثقافات الغربية ، ولأن تترك الموضوعات الضيقة التى كانت موضوعات الأدباء فى العصور الوسطى ، وهى فى جملتها موضوعات شخصية ، تكاد أن تكون محدودة فى الموضوعات الشعرية مثل وصف أو تعزية وتهنئة بفتح أو ظفر وغير ذلك . فأخذت موضوعات عامة مكان هذه الموضوعات المحدودة . فكان الأدباء أخذوا الأمة مكان الأفراد القدماء . هكذا أصبح الأديب ديموقراطياً بعد أن كان أرسطوياً ، بتوجيه إلى طبقات الأمة على اختلاف درجاتها بدلاً من التوجه إلى أرسطوياً من أمراء ووزراء وغيرهم بغرض الحصول على مكافآتهم وجوائزهم فيما يبدى لهم من شئونهم الشخصية ، حتى يوفروا له أسباب المعيشة والحياة .

فأخذ هذا النشر في السعي إلى محيط الشعب الذي يكسب عيشه منه مباشرة بواسطة نشر الكتب والكتابة في الصحف. نتيجة لهذا القول ردت إلى الكاتب حريته إلى حد ما. فصار يكتب برأيه وإرادته لأبرأى وإرادة فرد من الأفراد الأرستقراطيين، مهما كان شأنه. وحدث شيء أعمق من هذا وأبعد أثراً في حياة المصريين الأدبية. وهو أن الأدب بدأ يصور الجماعة وميولها السياسية وغير السياسية لأنهم خاطبوا الجماعة في شئونها التي تهمها في حياتها.

في عصر اسماعيل عند تكامل وعي الجماعة وإرادتها النيل حقوقها السياسية المطلوبة، ونظرها في نواحي حياتها المختلفة من سياسية وغير سياسية، وطموحها إلى إصلاحها من جميع الجوانب، وكان من أهمها تفكيرها في الدين وأهمه وخلافته العثمانية التي ترمز إليه والتي كان لها سلطان شرعي في مصر وغيره من البلاد الإسلامية. استجاب الأدباء لهذه الغايات الشعبية عند الأمة. أصدر إبراهيم الميرلي جريدة "نزهة الأفكار" وعبد الله أبو السعود صحيفة "وادي النيل". وأيضاً صدرت جريدة "الوطن". شارك المهاجرون إلى مصر من السوريين واللبنانيين في هذا النشاط الصحفي. فقام أديب إسحاق وسليم نقاش بإصدار صحيفة "مصر". وسليم وبشارة تقياً أصدرتا صحيفة "الأهرام". وسليم الحموي أصدر "الكوكب الشرقى" وسليم عنخوري "مرآة الشرق". وعندما تنحى عنها سليم عنخوري تولى تحريرها إبراهيم اللقاني. وبالإضافة إلى ما ذكر كانت صحيفة "أبوناظرة" التي أصدرها يعقوب صنوع، وصحيفة "التكيت والتكيت" من إصدار عبد الله نديم ثم سماها "إضافت" وحولها إلى صحيفة سياسية تائرة عند اشتداد الحساس الوطني قبل ثورة عرابي.

كانت هذه الصحف المختلفة تعبر عن عواطف المصريين السياسية وتدعو إلى إصلاح في الأداة الحكومية قبل تفاقم الأمر وقبل أن تعظم الخطب. وكانت الصحف تنفذ أيضاً سياسة الحاكم السيئة ثم تحولت غاضبة تائرة عليه. فقد كان الأوروبيون فرضوا على إسماعيل رقابة مالية، وتحولت الرقابة بالتالي إلى رقابة الحكم.

اقتربت بالعواطف السياسية عاطفة دينية قوية في نفوس المصريين، دفعتهم إلى الدعوة إلى إصلاح الدين وتنقيته من الخرافات التي أملت به. ومنح الشيخ محمد عبده هذه الدعوة إلى إصلاح الدين بدعوة عامة إلى إنقاذ الإسلام والمسلمين مما أصابهم من اضطلال وتأخر وانحطاط. كما فكر أيضاً في وطنه وما يعانيه من جور حكامه وسوء أحواله الاجتماعية.

تأثر الشيخ محمد عبده في هذا الاتجاه بجمال الدين الأفغاني تأثراً شديداً، فهو الذي دفعه إلى هذه الناحية. فقد كان يلتزم الشيخ دروسه الدينية والفلسفية، لزوم صحبته في بيته وفي غدواته وروحانياته. لزمه في دعوته إلى الإصلاح السياسي والديني والاجتماعي وكان يراه يهيج الخواطر ضد خيانة الأوطان الإسلامية وضد الحكام الذين يختانون هذه الأمانة التي ألقيت في أيديهم بإطلاق المستعمرين الأوربيين في شئونهم المالية وغيرها من الشئون الأخرى. وعمل على تمرين تلاميذه على الخطابة وإنشاء المقالات في الصحف. وكان على رأس هؤلاء الشيخ محمد عبده. وتحولت إلى الشيخ جميع هذه التعاليم التي تلقاها من أستاذه في السياسة وسواها، وتولت في صدره حماسة شديدة لخدمة دينه ووطنه. وأتيحت له الفرصة لإذاعة آراءه الإصلاحية في الجمهور، فعمل على تحرير "الوقائع المصرية" لأول عهد توفيق. وقد اشترك في الثورة العربية. وبعد إخفاق هذه الثورة حكم عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات، راح فيها إلى بيروت ثم إلى باريس. وكان جمال الدين قد سبقه إليها، فهناك أصدر رابعاً صحيفة "العروة الوثقى"، يحاولان فيها إيقاد نار الحمية الإسلامية في النفوس في مصر والعالم الإسلامي. كانا يعتقدان بوجوب توحيد المسلمين تحت راية الخلافة العثمانية، حتى يكونوا متحدين أمام الأوربيين وأمام استعمارهم البغيض.

في عصر اسماعيل وقبل الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م كان الكتاب يتناولون في كتاباتهم موضوعات سياسية ودينية واجتماعية، وهي موضوعات عامة، يستمدونها من عواطف الشعب، لا من عواطف فردية أو شخصية، أصبحت ميول الشعب انقلاب الذي

توضع فيه المقالات الصحفية المختلفة.

في بداية عهد الاحتلال عمت الكتابة مصر، وبعد مرور مدة قصيرة استردت
المجدوة السابقة قوتها. عفى عن الشيخ محمد عبده وعبد الله نديم اللذين اشتركا في الثورة
العربية. يصدر الشيخ علي يوسف صحيفة "المؤيد". يعبر فيها عن نزعة المصريين الوطنية.
وكانت صحيفة "الأستاذ" من إصدار عبد الله نديم. تناوئى الاستعمار. ويبحث مصطفى
كامل في صحيفته "اللواء" ناراً ضد الاستعمار والمستعمرين. كما يؤلف "الحزب الوطنى" ويصانع
الإنجليز صراعاً قوياً شديداً. يتألف حزب الأمة، وتصدر صحيفة "الجريدة" التى يحررها الطنفي
السيد. كان هذا الحزب معتدلاً في الكفاح، ولم يكن ثائراً كالخزب الوطنى. كانت فكرته أن مصر
للمصريين، لهذا يجب عدم التفكير في الخلافة العثمانية والعثمانيين، بل يجب الوقوف عند التفكير
في المصريين ومصالحهم. كان في قلب مصطفى كامل عطف على الخلافة الإسلامية، يصور فيه عواطف
الشعب المصرى الذى كان يعتبر هذه الخلافة رمزاً لدينه. أعلن حرباً شعواء على الإنجليز لا
تضعف ولا تلين لحزب الأمة وأفضاره، واندفعت الأمة المصرية وراء مصطفى كامل غاضبة.
هذه الحركة الوطنية الصادرة عن روح الأمة والترجمة المصاحبة لهذه الحركة، أو التيار
الغرنى الذى بدأ عمله في مجرى الحياة الأدبية المصرية، كل هذا عمل كمصدر لنشاط أدبى خصب
من حيث الموضوعات التى كان يتناولها هذا الأدب، كما كان مصدراً له من حيث اللغة أيضاً.
بعد الحرب الأولى عندما اضطر الإنجليز على الاستجابة إلى مطالب الشعب، وبدأ المصريون
يستردون حريتهم فوضعوا لهم دستوراً وأقاموا برلماناً، تولدت حركة خلقت الأدب المصرى الخالص.
ورد ذكر هذه الحركة بالتفصيل في موضوع تطور "اللغة".

كانت الدعوة من بعض النقاد إلى تمصير الأدب المصرى طبيعياً في هذه الحركة
وكذلك الأخذ بالاتجاه القومى. فشرهيكى في هذا الاتجاه مقالات كثيرة وجمعها في كتابه "ثورة الأدب".

فإنها أظهر رأيه بصراحة أنه ينبغي التمس مصادر الأدب المصري الحديث في الأدب الفرعوني القديم، بدراسة تاريخهم وأساطيرهم، والاستلها منهما في الأدب الحديث، واستوحى تاريخ "فرعنة" وأساطيرهم في عدة قصص وضعها.

الأدباء المصريون اتجهوا اتجاهًا أوسع من الاتجاه القومي. أفادوا من هذا الاتجاه الذي دعا إليه هيك، لكنهم لم يقفوا عنده. فاستمدوا من تراثهم كله من عربي، إسلامي وفرعوني. وهيك نفسه طلب فيما بعد، الحياة الإسلامية الخالصة. صارت هذه الحياة مصدرًا لأعماله الأدبية. وبدأ هيك عمله في هذا الاتجاه بالرسول صلى الله عليه وسلم، فكتب كتابه "حياة محمد"، ثم ألف كتابين عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

يرجع هذا إلى أسس الحركة الجديدة التي تبنى على القديم العربي في الموضوع كما تبنى عليه في اللغة. فتدرس تاريخ المصريين القديم وتستوحى عناصره الإسلامية وغير الإسلامية^{مئة} ومع هذا تدرس حياة المصريين الحاضرة وتستوحى بيئاتها المختلفة. وتضيف على هذا فتدرس في نفس الوقت الآداب الأوروبية أيضًا دراسة عميقة وتحاول أن تعرضها عرضًا حسنًا في "عربية" وتعمل على نقد ما وتحليلها تحليلًا واسعًا، وتستوحى منها وتستلهمها في كتابتها وفيما تخرج للناس.

الأسلوب الإنشائي العصري :

كان الشر قبل بداية تطوره في العصر الحديث قد أصبح المعول فيه على الألفاظ بين تورية وجناس وسجع واستعارة، بحيث تعذر على القارئ الوصول إلى المعنى، بسبب الصور المبهمة التي وجدت فيه فحجبت المعنى عنه. وفي هذا العصر أصبح هم أكثر الأدباء موجهًا إلى المعنى المراد إيضاحه وإلى إيصاله إلى ذهن القارئ بسهولة. بأثر موجة هذه المدنية بعلمها الطبيعية والرياضية المنبئة على المشاهدة والاختبار، وتعود الناس لتقدير

الوقت بتقريب المسافات وشيوع الحرية أصبح الأدباء لا يميلون إلى احتمال ما لاحتقيقة له، وأصبحوا يستنكفون من إضاعة الوقت في مثل هذا السجع البارد أو تكرار الألقاب والنعوت لا لغرض إلا التفتيح. وسهل عليهم العدول إلى الحقيقة. فجعل الأديب العصري همه في أدبه الالتفات إلى المعاني من حيث مطابقتها للواقع أو المعقول. ويقتضى هذا الأمر أن يكون لنظمه أو نثره غرض معين أو حكمه أو تعليم أو انتقاد عادة أو عظة أو سياسة أو خلق أو غير ذلك مثل فعل أدباء الإفرنج، وأن ترمى المقالة أو القصيدة إلى غرض يترابط الأجزاء من أولها إلى آخرها. وهذا يخالف شرط بعض أدباء العرب أن يكون كل بيت من القصيدة مستقلاً بمعناه.

الأديب الذى ينزع في أدبه إلى الأساليب العصرية يطرق الموضوعات التى اقتضتها

هذه المدنية من الآداب الاجتماعية الجديدة بالوصف أو النقد أو مثله. ووصف العواطف وتشرحها مع الميول إلى الحقيقة وتصويرها بلا تطرف. ووصف الأخلاق وتحبيذها أو انتقادها أو وصف المباني أو العادات. ويشمل هذا ما أصاب مركز المرأة من الارتقاء الاجتماعى فى هذا العصر بالقياس إلى ما كانت عليه قبله.

نرى تغييراً مهماً حدث فى أسلوب التأليف بعد هذه النهضة، وهذا التغيير يلائم

روح هذا العصر، التى تقتضى النظر فى الأشياء من حيث حقائقها، والتعويل على الجوهر، وهو المعنى فى الشعر والنثر دون الأعراض وهى الألفاظ، امتداء بأصحاب هذه المدنية. والتعويل على المعانى فى النثر أكثر منه فى الشعر. ومميزات التأليف أو النشر فى هذا العصر كما ترى:

١- سلاسة العبارة وسهولتها، بحيث لا تجعل القارئ يتكلف فى قراءتها أو يعجز الفكرة فى فهمها.

٢- ترك الألفاظ المهجورة والعبارات المسجعة، إلا التى تأتى عفواً ولا تشغل على السمع.

٣- جعل اللفظ على قدر المعنى، بتقصير العبارة وتجريدها من التعميق والحشو.

٤- جعل الموضوع مرتباً ترتيباً منطقياً فى حلقات متناسقة، يأخذ بعضها برقاب بعض، وتنطبق

أوائلها على أو آخرها.

٥- تقسيم الموضوعات إلى أبواب وفصول وتصدير كل باب من هذه الأبواب، أو كل فصل من هذه الفصول بعبارة أولفظ يدل على موضوعه .

٦- توفير فهرس أجدية في الكتب، تسهل البحث عن الفروع للموضوع الأصلي، وقد يجعلون للكتاب الواحد عدة فهرس، للموضوعات وللأعلام وغير ذلك .

٧- تنويع أشكال الحروف حسب مقتضى أهمية الكلام، فحرف للثن وحرف للشرح وحرف للرؤوس.

٨- تسمية الكتب باسم يدل على موضوعها، كتسمية كتاب تاريخ مصر بتاريخ مصر وكتاب النحو بالنحو، وكتاب الكيمياء بالكيمياء وإبطال التسميع في أسمائها .

٩- تزيين المؤلفات بالرسوم، وضبط الألفاظ بالحركات عند الضرورة .

١٠- فصل الجمل بنقط أو علامات للتدليل بها على أغراض الكاتب. كالوقوف والتعجب والاستفهام أو غيره . وعلاسات لحصر الجمل المعترضة أو تمييز بعض الأحوال .

١١- الإشارة إلى كتاب أو كاتب في ذيل الصحيفة عند إسناد الكلام إليه .

بعض هذه المميزات كان معروفاً من قبل. على أن كثيرين من كتابها لا يزالون يعملون

في تقليد القدماء في طرقهم !

تطورت إلى هذا أسلوب النشر العصري تراكيب أحجية، أخذها الكتاب من

اللغات التي يترجمون عنها أو يطالعونها، ولا شعور لهم بذلك. لكن أساتذة اللغة وبلغاء الكتاب

لا يقبلونها ويتجنبون الوقوع فيها. من أمثلة هذه التراكيب :

١- فلان كلاهوتي يقدر أن يؤثر كثيراً

٢- رأيت صديقي فلاناً الذي أعطاني الكتاب (أى فأعطاني)

٣- دغماً عن مساعيه الحميدة لم يشجج في عمله

٤- مستعداً العناية من الله أقف بينكم خطيباً

٥- لعب فلان دوراً مهماً في هذه المسألة

٦- المعاهدة المصادق عليها من الدولة الفلانية

٧- إن الأمر الفلاني مضر بقدر وشرف ومالية فلان

٨- يوجد في بلاد الحجاز عدة جبال

٩- هذه النصية أعطته درساً نافعاً

غير ما دخل في هذه اللغة من الألفاظ الأعجمية أو العامية.^١

تطرق إلى اللغة العربية في هذه النهضة أسلوب من النشر، وهو أسلوب دواوين

الحكومة المصرية، وهو أسلوب ضعيف وركيك. أسهل هذا الأسلوب يرجع إلى العصر العثماني،

حين بلغت مصر غاية الاخطاط من حيث حالتها الاجتماعية والسياسية والعلمية. لم ينقض القرن

الثامن عشر حتى صارت لغة الكتابة تشبه لغة العامة مع ما يتخللها من الألفاظ الأعجمية.

ونستطيع أن نرى هذا في إنشاء المؤلفين من أهل تلك الفترة كالجبرتي ومعاصريه. وعند قدم

الفرنسيين، إلى مصر أحضروا في حملتهم جماعة من المترجمين الذين يتوسطون بينهم وبين الشعب

المصري، ويترجمون لهم المنشورات والمراسلات. بيد وأن بعضاً من هؤلاء المترجمين كانوا من

غير أبناء هذه اللغة، لهذا السبب عند ترجمتهم لعبارة صاغوها في قالب أعجمي وما لم يجدوا له

لفظاً عربياً تركوه لفظاً أفرنجياً، أو وضعوا له لفظاً عامياً. لما صارت الولاية إلى محمد علي وشرع

١- زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ص ٤٥ ج ٤

فى إنشاء الدواوين لم يستطع أن يستغنى عن الذين يترجمون بين حكومته وحكومات أوربا. فاستخدم المترجمين، واللغة فى حالة انحطاطها وركاكتها، والذين يعرفون أساليب هذه اللغة ويحفظون أوضاعها قليلون، وخاصة من الذين استُخدموا لأعمال الحكومة أو ترجمة أوامرها. هذا مكن من دخول لغة الحكومة ألفاظاً وتراكيب خاصة بها. عند استنارة الناس على أثر نشر الصحافة ونبوغ الكتاب والمنشئين فى أواخر القرن التاسع عشر، انتظمت طائفة منهم فى مصالح الحكومة، وأخذوا ينقصون لغة الدواوين من تلك الشوائب.

دعت الحاجة إلى تفهيم العامة إلى نوع من النثر وهو الإنشاء الصحفى. كان فى بداية أمره ديك الأسلوب ثم تدرج فى أسلوبه وألفاظه. أول من أحسن فى هذا الإنشاء من رجال الصحافة الشيخ أحمد فارس الشدياق فى الجواب، والبستاني فى الجنان. وعند زهو الصحافة فى زمن إسماعيل خطا هذا الإنشاء خطوة مهمة على يد أديب إسحاق، الذى اتخذ أسلوباً قلده فيه الكتاب. دخلت روح سياسية حماسية فى النثر الصحفى بسبب الحركة السياسية الوطنية التى كانت فى أواخر عهد إسماعيل وأوائل عهد توفيق. وخاصة بعد زيارة جمال الدين الأفغانى لمصر والتفاف الكتاب حوله، وخطوة أخرى للإنشاء الصحفى كانت فى العصر الأخير باتجاه الخواطر إلى اللغة العربية والجامعة العربية. حدث نبوغ طبقة بليغة من الكتاب الصحفيين المعاصرين. ونستطيع أن نقول عن إنشاء الصحفى، أنه على إجماله صار واضحاً مقسماً محبوباً، خالياً من المقدمات والخاتمات، لا سجع فيه ولا تورية أو تفخيم.

الفنون البشرية في العصر الحديث

دأبنا تطور النثر الحديث فيما سبق. تحت تأثير هذا التطور عادت الخطابة السياسية إلى الازدهار. ولعلها لم تشهد هذا الازدهار في العصور القديمة. فن الخطابة فن قديم عند العرب. فكانت لهم خطابة نشيطة في العصور الجاهلي والإسلامي. وجدت الخطابة السياسية عند زياد بن أبيه وأمثاله والخطابة الدينية عند الحسن البصري وزملائه. كان هذان النوعان مزدهرين في العصر الأموي، ثم فقدان النضرة والحياة في العصر العباسي ثم في العصور التالية. معاملة العباسيين مع الناس عملت على ذبول الخطابة السياسية. فقد ضغطوا على الناس وحرموهم الحديث في شؤونهم السياسية. وجمد العقل العربي، فلم تتطور الخطابة الدينية في صلاة الجمعة والأعياد. كفت لهم نماذج ابن نباتة معاصر سيف الدولة في القرن الرابع الهجري، وأخذوا يبدؤون ويعيدون فيها دون تغيير. فلما جاء العصر الحديث كان النوعان من الخطابة سيتين. ثم عند استرداد الحرية ونقل القضاء العربي عادت الخطابة السياسية إلى النشاط. واستمدادها في هذا النشاط من معين الفكر العربي الذي لا ينضب والمبادئ التي وصل إليها في الحريات والحقوق السياسية، وأيضاً من حياة العرب وظروفها الماضية التعسة في الحكم السيئ والاحتلال. فظهر خطباء سياسيون مثل مصطفى كمال ونسعد زغلول. ثم نشأة الدستور القديم والأحزاب ودعوة كل حزب لنفسه، عملت هذه الأمور على نمو وازدهار الخطابة السياسية، وظهر خطباء مختلفون في كل حزب، يبلغ عددهم إلى العشرات. وأخذ المصريون عن الغرب الخطابة القضائية.

فهذا نوع جديد أنشأوها في الخطابة. وجد المحامون والمدعون - رنبغت طائفة كبيرة في
الطرفين من نابهي الخطباء القضائيين.

سبق مصر بالخطابة السياسية والقضائية في الأدب العربي الحديث إلى النهوض
ففي هذا الوقت قدر لها النشاط فيهما، من دون البلاد العربية الأخرى؛ بسبب كون الحريات مكبوتة
في البلاد العربية الخاضعة لتركيا، وعدم نقل النظام القضائي الغربي إليها. كان يقرأ خطباء مصر
عن الثورات الغربية وسببها في الحرية والإخاء، وكانوا يقرأون عند كتاب الغرب المختلفين
في الحقوق الإنسانية. أيضاً نشطت الخطابة الاجتماعية التي تتناول نواحي اجتماعية ودراسة
مختلفة. وهذه الخطابة تلقى في النوادي والحفلات العامة.

ترقى فن الخطابة ترقية واسعة في حياة المصريين الأدبية الحديثة، لكنه ليس
فن مستحدث في هذا العصر، باستثناء الخطابة القضائية. توجد في هذا العصر فنون نشرية
أخرى، بالإضافة إلى الخطابة، استحدثت أو أنشئت باستلها من أعمال الغرب وما أقامه فيها
من نماذج مختلفة، وهي المقالة والقصة والمسرحية. وهنا أخص بالذكر المقالة والقصة لأن
المنفلوطي كتب هذين الفنين في النشر من بين هذه الفنون.

المقالة:

لم تعرف العرب القدماء هذا الفن. وإنما عرفوا الرسائل التي تتناول بعض الموضوعات
في سعة، غالبها ألحول من قالب المقالة. تشبه الرسالة كتاباً صغيراً، مثل رسائل الجاحظ. ولم
ينشئ العرب الرسائل من تلقاء أنفسهم، بل اقتبسوها عن اليونان والفرس. وكتبوا وأدوا
فيها بعض الموضوعات الأدبية. وخطبوا بهذه الموضوعات الطبقة المتأخرة من المثقفين في عصورهم.
أما المقالة فقد أخذت عن الغربيين، ونشأتها كانت نتيجة ضرورات الحياة العصرية والصحفية.

لما وجدت الصحف، وصارت محاولة الكتاب للكتابة في الموضوعات التي تهتم الجمهور، استحدثوا هذا النموذج الأدبي القصير، وجعلوه خاضعاً للضرورات الصحفية من حيث القصر وتبسيط الأفكار حتى يفهمها الناس وتسهيل اللغة لهم. فكما نعرف المقالة قالب قصير، لا يتجاوز نهراً أو نهريْن في الصحيفة إلا قليلاً. ومخاطب المقالة طبقات الأمة على اختلافها، وليس طبقة رفيعة في الأمة. لهذا السبب المقالة لا تكون عميقة في التفكير حتى تستطيع الطبقات الدنيا فهمها، ولا يجعلها الكتاب تلمس الزخرف اللفظي، ليتمكنوا من جعلها قريبة من الشعب وذوقه الذي لا يتكلف الزينة، ويؤثر هذا الذوق البساطة والجمال الفطري. لهذا اضطر الأديباء إلى نبذ البديع والسجع والخصائص التي كانت تشغل أساليب رفاعة الطهطاوي وتسبب جمودها عندما أكثروا من كتابة المقالات بالصحف في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.

يرجع الفضل إلى مصر في صناعة نموذج المقالة، وأسهم في هذه الصناعة المهاجرون السوريون واللبنانيون إلى مصر مثل أديب إسحاق. في بداية القرن العشرين أصبح للمصريين كتاب ممتازون نهضوا بالمقالة سياسية وغير سياسية خير نهوض، ودفعوها أشواطاً حتى استلأت وغنت بالفكر النشط.

بدأ الكتاب تمرين هذا النموذج الجديد لتصوير آراءهم عن السياسة الداخلية والخارجية، وفي الإصلاح الديني والاجتماعي، وفي جميع شؤون الحياة. ومع تقدم الزمن قطع الكتاب مرحلة في هذا التمرين. وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تكون طبقة ممتازة من كتاب المقالة، مثل علي يوسف، مصطفى كامل، فتحي زغلول، قاسم أمين، عبد العزيز محمد، أحمد لطفي السيد ومحمد عبده وغيرهم من الذين كانوا يحاربون الفساد الاجتماعي والسياسي والديني. وكان هؤلاء الكتاب المفكرين أكثر عميقاً وبعيداً في الحياة المصرية، لأنهم صاروا المصلحين الذين حملوا راية الإصلاح في جميع نواحي حياة مصر العامة. فهم الذين جعلوا الشعب المصري

يشعر بحقوقه وواجباته وبأسباب التأخر والخطا المتعلقة بحياته. كما علوه أيضاً طريقة العيش الحر في الوطن، وبينوا له سبيل النهوض إلى تحقيق الاستقلال وإلى تحقيق حياة كريمة. وهكذا أثاروا في الشعب المصري العناصر الكامنة من قواه.

نرى محاولة محمد عبده التجديدية الجريئة في الدين، وهو أهم مصلح ديني عرفته مصر الحديثة. كان يدعو إلى تخليص الدين من الأوهام والخرافات المتعلقة به، كما كان يدعو في دعوته إلى البحث الحر في الدين على نخط البحث القديم عند المعتزلة. يرى أن باب الاجتهاد لم يغلق، فلا بأس في البحث فيه وفي أصوله على ضوء الفكر الحديث. ونراه يثبت في مقالاته وأبحاثه أن الدين الإسلامي دين عالمي وحى وأنه غير متعارض مع المدنية الحديثة. ورد على الذين يهاجمون هذا الدين من المستشرقين والمستعمرين بقوة. فسر القرآن الكريم تفسيراً جديداً يتفق مع هذه الروح. قام بإصلاح القضاء الشرعي عندما عهد إليه بالافتاء في عهد عباس الثاني. أيضاً عمل على إصلاح مناهج التعليم في جامع الأزهر.

نجده اسم قاسم أمين في الإصلاح الاجتماعي. يرى أهم أسباب تأخرهم عن الغرب في حالة المرأة ومكانتها عندهم. أعفى حجاب المرأة وجهلها وشغل هذا الجزء الحي في المجتمع وإهدار جميع حقوقه في الزواج وكذلك في الحياة. وكتب قاسم أمين في هذا الموضوع مجموعة من المقالات نشرها في صحيفة "المؤيد"، ثم جمعها في كتاب، سماه "تحرير المرأة". ثم أتبع هذا الكتاب بكتاب آخر بعنوان "المرأة الجديدة". في هذا الكتاب أيضاً دافع عن حرية المرأة دفاعاً حاداً. ورسم خطوط هذه الحرية، ورأى وجوب خروج المرأة إلى الحياة العامة واشتراكها في أعمالها ومسئولياتها المختلفة. كانت هذه الآراء بمثابة ثورة في بداية القرن، وخاصة في البيئات المحافظة. ثم كتب لهذه الثورة النجاح الهائل بعد الحرب الأولى عند عودة الحرية إلى المصريين، فخلعت المرأة الحجاب، وحصلت على التعليم وبدأت تشارك في الأعمال الحكومية والمهن الحرة مثل

طب وغير ذلك .

هكذا كانت هذه الطائفة من كتاب المقالة تعمل على تجديد حياة وعقول الشعب المصري وتدفعهم إلى الأمام . وكان كثير منها متقناً للغات الأجنبية ، وأخذ يقرأ آثار المفكرين الغربيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فاقتبس من هذا الفكر الغربي إلى النشيط الذي تأثر منه ، في مقالاته التي كتبها لقومه . وأهم الموضحين لهذا الاتجاه فتحي زغلول وأحمد لطفي السيد . فقد ترجم فتحي زغلول كتاب " سر تقدم الإنجليز السكسونيين " ونشره في شكل مقالات متسلسلة في صحيفة " المؤيد " سنة ١٨٩٩م ، فكان بذلك باعثاً على البحث في عيوب المصريين الاجتماعية . ولطفي السيد ترجم بعض آثار أرسططاليس ، فكان بعمله هذا رائداً لاتصال المصريين بالفلسفة الغربية وأبحاثها في القديم والحديث . فأصبح هذا النموذج النثرى الجديد ، أي المقالة ، نموذجاً فكرياً نشيطاً ، بما اقتبس له الكتاب من أفكار الغربيين في السياسة والأخلاق والاجتماع . فأصبح أنواع المقالات في العصر الحديث سياسية وأدبية واجتماعية .

المقالة السياسية .

لم يمض وقت طويل من العصر الحديث حتى وجدت المقالة السياسية الطليقة من السجع والبديع . وبدأت مخاطبة الناس من قريب والتحدث إليهم في شؤونهم الوطنية ، فأصبح تأثيرها قوياً في نفوس الناس . فكانت الثورة العرابية من نتائج هذا التأثير . وهذا ما دعا الحكام إلى أن يحاكموا كتاب المقالة مع زعماء هذه الثورة . فلجأ عبد الله نديم إلى الاختفاء ونفى محمد عبده ، وكان قد أبعد جمال الدين الأفغاني ، وما أصابهم ما أصابهم إلا من أجل مقالاتهم السياسية التي كتبوها . نشعر بغلبة النزعة الخطابية على مقالات النديم ، فقد كان

خطيباً مفونفاً من خطباء الثورة العربية . كانت عاطفته الوطنية حادة وهو كان يلمح على مقالاته أحياناً بسخرية مرة . وأحياناً كان يكتب مقالاته في نواحي اجتماعية إصلاحية ماسحاً عليها بدعابة حلوة . نجد في مقالات محمد عبده ضرباً سائداً من الانفعال في وقار ورمانة . وشفع مقالاته السياسية بمقالات إصلاحية في الدين والمجتمع الإسلامي . كتب هذه المقالات بصيراً حاذقاً ، محمساً تارة ، وفاحصاً ودارساً تارة .

رقى ونما هذا النوع من المقالات مع رقى ونمو عقل الشعب المصري ، واختلفت مقالات الجيل الأول عن مقالات الجيل الذي تلاه في عصر الاحتلال باختلاف واسع ، من مثل مصطفى كامل والشيخ علي يوسف ولطفى السيد ، فقد بعث هذا الجيل الثانى حياة وقوة فى المقالة السياسية . ومقالات مصطفى كامل فى صحيفة " اللواء " كانت أقوى مقاومة قاوم بها المصريون الاحتلال البريطانى . هذه المقالات شجعت عزائم الشعب لمناهضة الاحتلال ومصارعته . ولما نه زعيم الحركة القومية فى مصر فى عصره غير مدافع ، كان كاتباً سياسياً وخطيباً مفوهاً ، كان شديد التأثير . أيقظ الوعي القومى فى قومه ، صاعحاً فى سمعه وسمع العالم الأوروبى بكامله صيحاته فى الحرية والاستقلال والحياة الكريمة . وكان يكتب الشيخ علي يوسف فى صحيفته " المؤيد " مدافعاً دفاعاً حاراً عن الإسلام والشرق ، وموغراً صدى ورشعبه على الإنجليز ، وكان لطفى السيد يكتب فى " الجريدة " داعياً إلى تربية الشعب تربية قومية ، حتى يكون قادراً على انتزاع حقوقه من المعتدين .

نشطت المقالة السياسية فى مصر نشاطاً واسعاً عند وصولها إلى الجيل الثالث ، الذى خلف الجيل الثانى ، ونشأ بعد الحرب الأولى فى القرن العشرين . نشوء الأحزاب السياسية بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢م وحدث معارك شديدة بين هذه الأحزاب ضاعف نشاط المقالة السياسية . وخير الممثلين لهذا الجيل أمين الرانعى ومحمد حسين هيكل وطه حسين

وعباس العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وعبد القادر حمزة. وتختلف مقالات هؤلاء الكتاب السياسية باختلاف شخصياتهم ومقدراتهم البنيانية.

DS- 2206

المقالة الأدبية.

نرى المقالة الأدبية التي تتناول شؤون الأدب والثقافة مرافقة للمقالة السياسية منذ نشأتها. وخصصت المقالات الأدبية لها مجلات أسبوعية أو شهرية مثل المقطف والهلال. ونشأت مجلات مختلفة مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة والثقافة. ملكت هذه المقالات تأثيراً واسعاً جداً في الحياة الأدبية في مصر والبلاد العربية. ونلاحظ في هذا النوع من المقالات نفس الدورات الثلاث التي رأيناها في المقالة السياسية. فكانت نشأتها نشأة ساذجة في القرن التاسع عشر، ثم تطورت. فالجيل الثاني أودع فيها ما استفاده من قراءته عند الغربيين في الاجتماع والأخلاق وشؤون الفكر المختلفة. اهتمت المقطف منذ ظهورها في أواخر القرن التاسع عشر بالحركة العلمية عند الغربيين ووجهت العناية إلى تصوير نظريات هذه الحركة للجمهور المصري الخاص والجمهور العربي العام. وعند الوصول إلى جيل هيكل وطه حسين والمازني والعقاد، وهو الجيل الثالث، أصبحت المقالة الأدبية أثراً فنياً قيمياً، لها أثر في مس القلوب ولإثارة العواطف. ووسع كتاب المقالة هذا الفن إلى مباحث عميقة في الأدب والنقد والفنون الجميلة والنظريات الفلسفية والاجتماعية، سترشد في ذلك بالمثل الإنسانية العليا، مثل الخير والحق والجمال. اتخذ هذا السبيل غير كاتب من شل توفيق الحكيم وغيره من الذين نقلوا روح الفكر الغربي ومذاهبه الاجتماعية والأدبية في مقالاتهم. وحافظوا على مقالاتهم فلم يدعوها للفناء مع الصحف، بل أتاحوا لها البقاء بجمعها وطبعها في كتب مختلفة.

المقالة الاجتماعية .

وجدت في هذا العصر المقالة الاجتماعية أيضاً. فقد كتب مصطفى صادق الرافعي وأحمد أمين هذا النوع من المقالات. مقالات الرافعي الاجتماعية تمتاز باستبطان عقلي واسع ساعد عليه صممه المبكر. وهذه المقالات لأحمد أمين تمتاز بمحصول فكري وافر ساعدت عليه ثقافته الواسعة. وأحياناً يأتي بنقد بعض نواحي المجتمع لكنه ينقدها بهدوء ممتع، لا في سخط عنيف. يلزم هنا ذكر المنفلوطي أيضاً، الذي اشتهر في مقالاته الاجتماعية بأسلوبه العاطفي الفريد وببث معاني الرحمة والفضيلة ووصف بؤس البائسين. كان ينشر مقالاته بعنوان "النظرات" في صحيفة "المؤيد"، تتناول بعض نواحي المجتمع. كان ينظر في هذه المقالات في بعض المساوئ الاجتماعية، ثم قام بجمعها ونشرها بنفس العنوان. ليس هذا الموضوع جديداً، فطرق هذا الموضوع كثير من الكتاب المصريين. لكن الإطار الذي صاغه فيه المنفلوطي مهم، فقد وجه العناية إلى أسلوبه وأدى معانيه فيه أداءً فنياً بديعاً. لم تكن هذه المحاولة في أسلوب السجع الذي أُهمل، بل كانت في الأسلوب المرسل الجديد. كان المنفلوطي بارع العناية بهذا الأسلوب، فاهتم بانتخاب ألفاظه واختيارها، وفرضه بآمن الموسيقى لهذه الألفاظ بحيث تسيغها الأذان وتقبل عليها. كان لا يحجب شباب مصر بهذا الأسلوب شديداً في بداية القرن العشرين، واستمر هذا الإحجاب وبقى طويلاً.

القصة :

كما نعلم ليست القصة جديدة على الأدب العربي تماماً، فالأدب الجاهلي يشتمل على قصص كثيرة تتعلق بأيام العرب وحروبهم. ويحتوي القرآن الكريم قصصاً مختلفة عن الأنبياء ومن

أرسلوا إليهم. وفي العصر العباسي نقل كثير من قصص الأمم الأجنبية إلى العربية. ومن أشهر التراجم التي حدثت في ذلك الوقت كتاب كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة. وهنا يلاحظ شيء وهو أن القصص العباسية وما خلفها من قصص عند الشعوب الإسلامية اتخذت اللغات العامية لساناً لها غالباً. ولا يعتبر شيء منها الأدب العربي الفصيح، إلا المقامات. وهي قصص قصيرة فيها تصوير مغامرات أديب متسول يخلب سامعيه بواسطة بلاغة عباراته وحضور بديهته. بديع الزمان اخترع المقامات والذين خلفوه مثل الحريري لم يفكروا في صنع قصة حقيقية أو أقصوصة، لكنهم فكروا في جمع طوائف من الأساليب المنققة الموشاة بالسجع والبديع بغرض تعليمي.

هكذا انقطعت القصة الطويلة من العربية الفصحى، فدخل هذا الفن في اللغات العامية. يتضح من كثرة القصص المصرية في القصص الشعبي الوسيط مشاركة اللغات العامية في هذا النشاط والسرعة إليه ومحاولة التفوق فيه. فقد ألفت قصة عنتره وقصة المهملية، قصة الظاهر بيبرس وذات الهمة وسيف بن ذي يزن وفيروز شاه، ومُصِّرت ألف ليلة وليلة فلكبت بالعامية وأضيفت إليها قصص جديدة مثل قصة علي الزبيق وأحمد الدنف. فلاحظنا وجود قصص شعبية عند المصنفين وعدم وجود قصص فصيحة في العصور الوسطى.

عند الاتصال بأوروبا وانتشار الثقافة الغربية والتأثر بآدابها واطلاع الكتاب على القصص الأعجمية اتجهوا إلى القصص الغربي وأكبوا على نقلها. سبق اللبانيون غيرهم إلى محاولة هذا الفن بسبب تقدم ثقافتهم. فترجم اللبانيون قصصاً عن الإنكليزية والفرنسية ومن لغات الغرب الأخرى إلى العربية. وأشهر هؤلاء المترجمين سليم البستاني، ونجيب خراد، ونقولا رزق الله، ولطانيوس عبده ونقولا الحداد. أيضاً عملوا على إنشاء المجلات القصصية، مثل مجلة "الراوي" لطانيوس عبده و"الروايات الجديدة" لنقولا رزق الله.

لم تقف محاولتهم على النقل بل تعدته إلى الوضع. راجت القصص التاريخية المتعددة الحوادث في أوروبا في ذلك الوقت، فأُنشأوا القصص على نخطها مستمدين الموضوعات من تاريخ الشرق. ألف سليم البستاني مجموعة من هذه القصص مثل "زنوبيا" و"بدور" ونشرها في "الجنان". ثم جاء جرجي زيدان فبنى سلسلة طويلة للقصص التاريخية على تاريخ العرب والإسلام. منها "عذراء قریش"، "غادة كربلاء"، "فتاة غسان"، "العباسة أخت الرشيد" و"المملوك السارد". ولكن الصبغة التاريخية تغلب على الاستنباط والفن في هذه القصص إجمالاً. وكان من محاولاتهم أيضاً وضع القصص العصرية التي تصور الحياة وجوانب الأخلاق في المجتمع، وما يحدث عنها من فضائل ورذائل. من أمثلة هذا النوع من القصص "بنت العصر" من إنتاج سليم البستاني و"أسماء" و"الهيام في جنات الشام"، أيضاً من إنتاجه. وكذلك "آدم الجديد" لنقولا الحداد وأيضاً "حواء الجديدة" و"أسرار مصر" و"الصديق المجهول" له. غلبت على هذا النوع من القصص المواعظ والدروس الخلقية، والاستنتاجات المنطقية والآراء الفلسفية.

في مصر كان رفاعة الطهطاوي هو الرائد في فن القصة الحديثة الذي اتجه فيه الأدباء إلى القصص الغربية. ومما ترجمه رفاعة من القصص الغربية "مغامرات تليماك" لنفلون، سماها "مواقع الأملك في وقائع تليماك". لقد أباح رفاعة لنفسه التصرف في أسماء الأعلام وفي المعاني في هذه الترجمة. فضمنها آراءه في التربية وفي نظام الحكم وكذلك ضمنها الأمثال الشعبية والحكم العربية. ولم يقيّد بالأصل الذي نقله إلى لغته إلا من حيث روحه العامة. نقل الطهطاوي القصة في أسلوب السجع والبديع الذي عرف في المقامات وعنوان هذه الترجمة وتغييره إلى الصورة المسجوعة يدل على عمله هذا في ترجمته.

لم يكن رفاعة مترجماً فقط، بل كان مصوراً للقصة أيضاً، واستمر التصوير لمدة طويلة بعده، وبدأ الأدباء في التحرر من لغة السجع والبديع. وهذا يدل على تمكنهم وسائل التعبير التي لم

يملكها رفاة ومعاصره، ولكنهم مع هذا اطلوا يصرون في تراجعهم لقصص من أجل تقريريها من ذوق القارئ، وأثر بعضهم التفسير إلى اللغة العامية مثل محمد عثمان جلال. ولكن المصريين من أصحاب الفصحى غلبوا على أصحاب العامية. ومن أشهر المصريين من أصحاب الفصحى في أوائل القرن العشرين حافظ إبراهيم والمنفلوطي. مقرر حافظ إبراهيم "البؤساء" لفكتور هيجو، فقد أجاز لنفسه في هذه الترجمة التصرف وإضافة فقرات من عنده. ولم يتقيد بالأصل ولم يحتفظ منه إلا بالخطوط الأساسية. جعل عمل المنفلوطي في هذا المجال أوسع من عمله، ولم يعرف من اللغة الفرنسية شيئاً لكنه اعتمد على جماعة قرأت له بعض القصص مثل "بول وقرجيني" وحاول المنفلوطي أداء ما سمع منهم في اللغة العربية، فكانت قصة "الفضيلة"، ونشر مثلها القصص الأخرى. كل هذه القصص تكاد تفقد الصلة بالأصل وأيضاً تفقد حبكته القصصية. فالغرض الأول الذي يرى إليه فيها هو تصوير الانفعالات العاطفية والاسترسال في أسلوب بليغ، وليس القصص.

مع التقدم في القرن العشرين استجاب بعض الأدباء إلى هذا الفن الغربي وحاولوا أحداث نماذج لهم فيه، منها محاولتان.

المحاولة الأولى "حديث عيسى بن هشام" في إطار المقامة، والمقامة قصة قصيرة لأديب متسول، يقوم بروايتها راعنه في أسلوب مسجع، ومازادت عن صفتين أو ثلاث، لا قليلاً. هذه المحاولة تصور استيحاء النماذج القديمة عند بعض الكتاب في العصر الحديث. نموذج المقامة القصير تحول عند المويلحي في هذه القصة إلى قصة اجتماعية طويلة، ليست لأديب متسول، وإنما هي لأحمد باشا المنيكلي الذي توفي في عصر محمد علي، ثم ردت إليه الحياة في أواخر القرن التاسع عشر، فخرج من قبره والتقى بعيسى بن هشام راعيته، وبدأ حياته في مصر الجديدة في ذلك الوقت. فرأى كل شيء متغيراً، وقارن بين حاضره وماضيه في أمور مختلفة

مثل عادات الناس ونظام الشرطة والقضاء. ثم صور ما رآه في صورة نقد اجتماعي واسع . فعل هذا النقد في أسلوب المقامات المسجع ، فكأنه كتب هذه القصة في صورة مقامة طويلة .

في هذه القصة عالج المويلحي الشئون الاجتماعية التي كان يكتب فيها المصلحون مثل قاسم أمين وفتحي ذغلول . فهذه القصة دليل واضح على وجود كتاب في ذلك العصر يكتبون على الطريقة التقليدية مع محاولتهم للملاءمة بين هذه الطريقة وبين حياتهم المعاصرة . كان الذين كانوا يصطنعون الأسلوب المسجع مثل المويلحي يحتفون تدريجياً ليحل مكانهم ذوق جديد .

خير ما يصور هذا الذوق في ذلك الوقت المحاولة الثانية وهي "زينب" من تأليف محمد حسين هيكل في باريس سنة ١٩١٠م . التي نشرها في صحيفة "الجريدة" . وهي محاولة جديدة خاصة وحقاً تعد أول محاولة كاملة للمصريين في صنع قصة بالمعنى الغربي الحديث . ليس فيها شيء من أسلوب المقامات ، ولا راوى بديع الزمان عيسى بن هشام ، وليس فيها شيء من مسجع ولا بديع . بل فيها لغة سهلة قريبة من لغة مصر اليومية . افترض المؤلف في هذه القصة بعض ألفاظ عاسية ، دعت إليها ضرورات القصة .

هذه القصة تصور الحياة في الريف المصري وطبقاتها الغنية والفقيرة والعوائل الاجتماعية التي توجد بين هذه الطبقات . كما تبين أيضاً دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة وريف مصر بفلاحيه وبمناظره الطبيعية وما فيها من فنية وجمال . فنستطيع أن نقول أنها قصة مصرية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

تالياً لهذه المحاولة ألف محمد تيمور مجموعة من الأقاصيص باسم "ماتراه العيون" بعد سنوات . هذه الأقاصيص قصيرة ، وخصائصها التي تمتاز بها هي واقعيتها وما تحمل من إحساس دقيق بالمفارقات وحكمتها القصصية .

بعد الحرب الأولى كثرت كتابة الأقصوصة كتابة فنية بارعة ، مثل ما نرى عند

محمود تيمور، و محمود لاشين في مجموعتيه "سخرية النأى" و "يحكى أن" وهو يمتاز بروحه المصرية الصميمة وقدرته على رسم الشخص و إحاطتها بإطار من الواقعية والفكاهة .

بدأ هيكّل القصة الاجتماعية الطويلة ، ثم خطا هذا النوع من القصة خطوات واسعة مع النهضة الأدبية بعد الحرب الأولى . فأصبح له غير كاتب أصيل له أسلوبه الخاص به ومميزاته الشخصية التي تميزه عن أقرانه ، ومن أهم الأسماء في هذه القصة طه حسين الذي امتاز بتصوير الحياة المصرية في قصصه الكثيرة مثل الأيام ودعاء الكروان وشجرة البؤس كما تناول أيضاً قصة شهرزاد المعروفة في ألف ليلة وليلة وقد سماها للقارئ تقدماً طريفاً بأسلوبه البارع . و المازني الذي يهتم في قصصه بالجانب النفسي في الرجل والمرأة . الحياة اليومية المصرية وتجاربها التي تعيها نخيلة المازني تعمل كمصدر يستمد منها في قصصه . ويشفع هذا بتحليل واسع للمجتمع المصري وعاداته وعلاقات أهله وأمرجتهم والمشاعرو الأحاسيس التي يضطربون فيها . يستمد من أكتاف الغربيين النفسيين هذا الاتجاه إلى التحليل النفسي . فانظريات النفسية المعروفة من عقد وتعويض وغيرها شائعة في قصصه كما هي شائعة عند الغربيين . تستطيع رؤيتها في قصة "إبراهيم الكاتب" و "عود على بدء" .

"سارة" قصة للعقاد ، تقترب من ذوق المازني . تمتاز بتحليل عقلي واسع وتمزجه بتحليل نفسي . وشخصية العقاد مسيطرة على التحليلين ، وشخصيته تبالغ في المنطق وفي إبراز الأسباب والنتائج .

يكاد يقف الاتجاه إلى التحليل النفسي في القصة عند المازني والعقاد . أكثر مسير الجيل التالي لهما في اتجاه هيكّل وطه حسين ، المعتمد على التحليل الاجتماعي ، لا على التحليل النفسي . في مقدمة

هذا الجيل توفيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ .

توفيق الحكيم اعتمد في قصصه على بعض الحوادث والتجارب التي رآها في حياته كما نلاحظ في "يوميات نائب في الأرياف" وحاول تناول بعض المشاكل القومية الوطنية كما في "عودة الروح". قصصه مطبوعة بطوابع إنسانية عامة، وإن كان يحاول في نفس الوقت محاولة جادة تصوير معالم الروح المصرية الشرقية. قصص محمود تيمور تهتم بالعيوب الاجتماعية. ويلتقي محمود تيمور في كثير من قصصه بطه حسين وتوفيق الحكيم، لكنه مستقل بأسلوبه وشخصيته. أما نجيب محفوظ فيوجه عنايته إلى تصوير الطبقات الوسطى والشعبية وما تخضع له هذه الطبقات من الظروف المختلفة في البيئة والمجتمع، مما ينتهي بها في بعض الأوقات إلى الانحراف الاجتماعي أو الخلق. منذ مطلع القرن العشرين وجدت القصة التاريخية أيضاً في العربية. ينبغي هنا ذكر "ذكرى أبي العلاء" لطفه حسين، البحث الذي حصل به على درجة الدكتوراة من الجامعة القديمة التي أنشأها قاسم أمين مع غيره من رجال الفكر سنة ١٩٠٨ م. وأتواها بكبار المستشرقين من أوروبا، منعت هؤلاء حياة علمية جديدة في الدراسة الأدبية، كانت نتيجةها هذه الرسالة التي قام فيها طه حسين بتحليل نفسية أبي العلاء وأثر البيئة المكانية والزمانية فيه. في أوائل القرن العشرين كان ينشر جرجي زيدان القصص التاريخية التي ألّفها والتي بلغت نيفاً وعشرين قصة، تصور الأحداث العربية الكبرى لأنه أخذ حوادث قصصه من التاريخ الإسلامي. هذه القصص لا تستوفي شروط القصة من الحكمة والتسلسل الروائي، لكنها تعتبر عملاً جديداً. يمكن إطلاق تاريخ قصصها عليها، تدج فيه حكاية غرامية. يحافظ الكاتب في هذا التاريخ على الأحداث كما هي، دون أي تحليل للمواقف والعواطف الإنسانية. بالإضافة إلى هذا كتب تاريخ التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء وتاريخ الأدب العربي في أربعة أجزاء استفاد منها من كتابات المستشرقين.

سرعان ما أخذت هذه القصة في النضج بعد الحرب العالمية الأولى. أول من أنشأها

في غاية الكمال الفنى محمد فريد أبو حديد فى قصته "زنوبيا" ثم فى قصصه الأخرى "الملك الضليل

والمهلل ثم "حما فى جانبولاد". أتعن فى جميع قصصه رسم الشخصوس والنفوذ إلى داخلها

وحباياها النفسية. نلقى فى هذا المجال كثيرين مثل على الجارم ومحمد سعيد العريان ومحمد عوض محمد.

فى سنوات الحرب الأخيرة، اغلاق البحر الأبيض أمام الأدياء أتاح لفن القصة عند

المصريين ازدهاراً واسعاً، لأنه توقف ورود القصص الغربية إليهم، فعكفوا على أنفسهم أكثر مما

كانوا يعكفون عليها فيما سبق. نتج عن هذا أن نضج هذا الفن على أيديهم دون أن يعتمد وافيته على

استيحاء أنماط غربية. بل كان اعتمادهم فيه على أنفسهم وعلى بيئتهم المصرية العربية. بهذا أصبح لهم فن عزى

متوطين فى بيئتهم لا يفتيسونه على أشلة ونماذج القصص الغربية. وظهرت أسماء كثيرة فى القصة والأقصوصة،

أصبح قصاصون مصريون مبدعون لا يحصيهم العد، لكل منهم أسلوبه ومنهجه وطريقته. فحماً أصبحت قصة

مصرية عندهم. وجد الشباب نفسه وأحسن حياته وما فيها من وقائع اجتماعية وبدأ التعبير عنها أقوى وأجمل تعبير

فى قصصه وأقاصيصه.

كان الميل شديد إلى تمصير القصص الغربية قبل الحرب الأولى من القرن العشرين،

وانتهى هذا الميل، وحل مكانه ذوق جديد من الترجمة الحرفية الدقيقة. قامت دور نشر كثيرة

على هذه الترجمة للجنة التأليف والترجمة والنشر ودار الهلال ودار المعارف وغيره من مؤسسات

وهيات. لوزارة التربية والتعليم جهود خصبة فى هذا المجال. هذا الأمر يعنى أن اللغة العربية

أصبحت تشتمل على قصص غربية حقيقية، بلغ عددها إلى المئات، وأيضاً على قصص

مصرية حقيقية جميلة ورائعة.

شاع فن القصة بعد الحرب العالمية شيوعاً عاماً فى مصر ولبنان وسورية

والعراق والمهاجرين. أنشئت له المجلات الخاصة، التى تهتم بالترجمة والوضع. فضل

الكتاب القصة القصيرة في التأليف، محاولين بها تصوير حياتهم أو حياة إقليمتهم الذي يعيشون فيه غالباً. نرى هذه العناية ظاهرة في لبنان ومصر خاصة. ولم يكتبوا إلا قليلاً من القصص الطويلة.

الفصل الثانى

المنفلوطى

حياة المنفلوطى

مولده وأسرته:

ولد السيد مصطفى لطفى المنفلوطى فى أسرة مصرية، فى مدينة منفلوط الواقع فى جنوب مصر، من مدن الوجه القبلى وإحدى بلدان مديرية أسيوط. وسنة ولادته ١٢٧٦هـ.م. أبوه محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفى، ينتسب إلى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب وأمه تركية من أسرة جوربجى المعروفة بالشرف العظيم والمجد. فأبواه كريمان وبته بيت علم ودين. وأسرته لأبيه فى مدينة منفلوط مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفعل. توارث أهل القضاء ونقابة المشيخة الصوفية قرابة مائتى سنة. والده قاضى منفلوط الشرعى سابقاً وعين أعيانها ونقيب لأشرافها وزعيم لأسرته.

نشأته وتعليمه وحياته:

حفظ القرآن الكريم فى المكتب على عادة أضرابه من أبناء الريف ثم خرج منه

حافظاً في سنة ١٨٨٨م وهو ابن إحدى عشرة سنة، فأدخله والده مدرسة الأزهر الشريف لجميع أفراد أسرته. مكث هناك عشر سنوات. فبعد مرور سنوات قلائل عرف بين أقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق في الفهم. ثم ذهب في تعليمه إلى مذهب غير المذهب الذي يذهب إليه الأزهريون في دراستهم. كان لا يطالع دروسه في كتب هذه المدرسة إلا على صورة تكفل له فهم أصل المواضيع والتثبت من حقائقها. ولا يحفل بما تشتمل عليه هذه الدروس عادة من المناقشات اللفظية. وكان لخطته هذه في التعليم أعظم أثر في سلامة ذوقه وصفاء ذهنه.

لم يطلب المنفلوطي التعمق في الدين، وإنما طلب الأدب. وشغف به عما سواه شغفاً ملك هواه واستأثر بلبه. ولم يلبث حين وجد الشيخ محمد عبده يدرس للطلاب تفسير القرآن وكتابي عبد القاهر الجرجاني في البلاغة: "دلائل الإيجاز وأسرار البلاغة" أن أعجب به. فأخذ يختلف إلى دروسه. ولصق به لصوق الولد بأبيه وأكثر من صاحبه في درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه. بذلك كمل ما كان ناقصاً من علمه ونفع من أدبه ما كان غير ناضج. وسرعان ما وجد ما كان يطلبه عند محمد عبده، وتأثر تأثراً قوياً بتعاليمه. وأيضاً كان أستاذه هذارحة الله عليه يعجب به كثيراً ويثنى عليه في ذكائه وفطنته. ويعلل نفسه بأن المنفلوطي سيكون من أفضل المنققين بعلمه والناسشرين لمبادئه وتعاليمه.

كما أنه أخذ يختلف إلى كتب القدماء ودواوينهم، كذلك كان يقرأ في آداب ابن المقفع والجاحظ وبيد الزمان الهمداني، ويقرأ في النقاد الأمدى والباقلاني وعياض وغيرهم ممن تناولوا وصف الكلام الجيد، ومن وقفوا عند إيجاز القرآن الكريم وجمال أساليبه. فكان من أثر ذلك أن علت مداركه وصقلت مرآة ذهنه وصار أديباً قادراً على نظم القطع الشعرية وكتابة الجمل النثرية وضمها ما شاء الله أن يضمها إليه من فنون الشعر وأفاين القول في

الوصف والآداب والانتقاد والأخلاق. ولكن طبعاً وحسب ما يظن كان ذلك في البداية كما يمكن أن يكون، لا كما يجب أن يكون. صار له ذوق جيد يعرف به كيف ينتخب لنفسه أروع ما يوجد في الكتب ودواوين الشعر العباسية من أدب شعري رائع، فعكف على جميع هذه الأشياء كما عكف على كتابات أستاذه محمد عبده، يستفيد منها كما يستفيد من آثار معاصريه المترجمة والمؤلفة. العقد الفريد، والأغانى، وزهر الآداب ودواوين المتنبي والبحتري وأبى تمام والشريف الرضى أفضل الكتب عند المنفلوطى، وأفضل الكتاب عنده هم عبد الحميد وابن المقفع وابن خلدون في مقدمته وابن الأثير إذا لم يسجج .

كان يفترص السواخ لدراسة الكتب الأدبية، مع أن قانون الجامع لا يسمح به، لأنه ما وجد في الأزهر ما يروى غليله منه. وكان شيوخه إذا ظفروا بكتاب منها في يده عنفوه وعاقبه، وهو لا يرده عنها تعنيف ولا عقاب.

لم يكن يعرف المنفلوطى لغة غير العربية وثقافته كانت محدودة على الاطلاع بالكتب العربى فقط، ولكنه مع هذا، كان عاكفاً على قراءة كتب مترجمة من اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية إلى العربية. حاول توسيع آماذ فكره بكل ما ملكت من قوة واستطاعة، ونجح في ذلك. أراد أن يترجم بعض القصص والمسرحيات الغربية. ساعده في ذلك أصدقائه. فطلب إلى بعضهم أن يترجموا له بعض آثارهم الأدبية إلى العربية، لأنه كان لا يعرف لغات هذه الآثار. فكانوا ينقلونها بأسلوبهم ثم ينقلها المنفلوطى إلى أسلوبه الخاص.

كما علمنا سابقاً كان المنفلوطى قريباً من الشيخ محمد عبده وهو زعيم النهضة الفكرية والأدبية في ذلك الوقت. وقد توفي أستاذه الشيخ في سنة ١٩٠٥ م. فأسف أسفاً شديداً لموته ورجع إلى بلدته المنفلوط ومكث بها عامين. ظل يكتب في هذه المدة صحيفة "للؤيد". وقد قرب المنفلوطى أدبه من الصحفى الكاتب الشيخ على يوسف البلفورى الذى أعطى مكاناً لمقالاته

في جريدته "المؤيد". حتى صار المنفلوطي حديث كل إنسان، وعمت شهرته، فصار صحفياً بارعاً يكتب مقالات ممتعة عن موضوعات مختلفة . بعد قضاء عامين هنا رجع إلى القاهرة . وكان سعد زغلول باشا (١٨٥٧ - ١٩٢٧م) معجباً به وكان من أكبر أصدقائه كما كان المنفلوطي محازباً لسعد زغلول باشا . فلما تولى سعد وزارة المعارف والتربية والتعليم عين المنفلوطي محرراً عربياً لوزارته في سنة ١٩٠٤م . وعند ما انتقل سعد إلى وزارة العدل نقله معه إليها . بعد خروج سعد من الوزارة في سنة ١٩١٩م ترث منصبه وما زال يكتب في الصحف وتابع نشر المقالات والكتب موجهاً إلى مواطنيه رسالة الانبعاث والتحرر . وعند قيام البرلمان في فبراير سنة ١٩٢٣م عينه سعد رئيساً للجامعة من أكتاب في مجلس الشيوخ . ومشاهيرته لا تقل عن تحسين جنيهاً . ولكن القدر لم يسمح له بالبقاء طويلاً في هذه الوظيفة ، فسرعان ما لبى نداء ربه في سنة ١٩٢٤م .

هذه هي حياة المنفلوطي التي قضاها متشائماً . إنه لم يعيش حياة هنيئة طيبة . فقد كتب له الشقاء في سبيل الحصول على ما يقيم به أوده . وقد نظم ، عند ما كان طالباً في الأزهر قصيدة في هجاء الخديو عباس حلمي (١٨٧٤ - ١٨٩٢م) فحكم عليه بالسجن عقاباً له . ف قضى في السجن مدة عرف فيها مرارة السجن . وكان لذلك أثره في حياته . فأحس بالبؤس والشقاء والآلام إحساساً شديداً . هذا جعله يشعر بالآلام عامة الناس تحت الاحتلال الإنجليزي فأظهر أئنه و بكاءه عليهم في مقالاته .

صفاته الخلقية والخلقية :

نجد من صفاته الخلقية أنه كان ذا جسم متوازن ومتناسب . وطبع السيد مصطفى لطفى المنفلوطي على أخلاق عالية وأوصاف حميدة . من صفاته التي كان يتصف بها الرزانة والوقار وهدوء البوادر ، رضاء الطبع . تمنع بما في يده مما ليس فيه . وكان لا يملك إلا قليلاً من المال ولكنه زهد فيما

سواه وعف حق عن مد يده إلى أبيه. ما أخذ أجراً على أدبه قط في حياته. كان كريم خلق. وكان هذا سبباً في وصول الأذى إليه. "كان آخر عهده بذلك الأذى تلك القضية التي رفعها عليه النيابة العمومية من نحو خمسة عشر عاماً من أجل قصيدة رأت أنه من فيها كرامة الخديوي السابق ثم دارت الأيام فأظهر مولانا الكريم تعطفه بالرضى عنه عند ما تبين له حسن قصده وسلامة ضميره." ^١ كان سخياً جواداً بكل ما يملك. فرجماً شكراً إليه صديق حاجة أو عرفها من وجهه، وعلم أنه يكتسبها منه حياءً، فماتاً آخر عن مساعدته، وقد يقسم ما في محفظته من الدراهم بينه وبين المحتاج. من خلق المنفلوطي حلم وأدب وحياء. قد يحسبه حاسب مجزاً وضعفاً. قليل الغضب لكنه قوى وشجاع في حالة الغضب. قادر على صمت طويل، إذا نظره ناظر ظنه عاجزاً عن الكلام، فإذا تكلم بذ القائلين.

هو مؤمن بالله إيماناً قوياً كالطود الراسخ الذي لا تؤثر عليه العواصف ولا الحوادث والفواجع التي تأتي في الدهر. ما رآه أحد في يوم من الأيام ملأ على أمر يفسد عليه دينه أو مروءته. ثقته بالله قوية في حالتيه العسر واليسر والشدة والرخاء. قدر زقه الله صبراً جليلاً على عظام الرزايا والحوادث. مات طفلاً في أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث الحزن الأليم سكناً تاماً، لا تخاطبه زفرة ولا تمازجه دمة دمعاً عن شغفه بهما. ثم بعد ذلك ماتت زوجته أيضاً وكانت أحب الناس إليه. ولكن أثر وفاتها لم يظهر عليه. فجلس مع أصدقائه يتحدث معهم ليلة وفاتها. كأنما المرزوء بذلك الحادث سواء. المنفلوطي طاهر القلب، أبيض السريرة. وقع في شرك صداقة كثير من أصدقائه وعشرائه الذين أحسن إليهم وكانت له اليد في تعليمهم أو تقويم أود عيشتهم ثم غدر هؤلاء معه. فما بالي بذلك وكانت كلمته الوحيدة التي

١- محمد محمد عبد الفتاح، أشهر مشاهير أدباء الشرق (عطية محمد على الكتبي) ص ١٨٤،

كان يقولها في مثل هذه الساعات: "إن الله وحده هو الذي يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان".^١
 حياته حياة ذاتية . لا يهتم بتلك الحياة الإضافية التي يحياها كثير من الناس الذين
 لا يعرفون حياتهم الأصلية . فلا يعرفون حياتهم ، الا كما يريد ما الآخرون لهم ، لا كما يريدونها ويشتهونها
 لأنفسهم . يحتقر مدح المادحين له ويصغر في نفسه انتقاد المنتقدين عليه . فاتفق الناس جميعاً
 على رأى يخالف رأيه لا يؤثر على عقيدته ولا على رأيه شيئاً . كان يقول كثيراً : " لا طلعت على
 شمس ذلك اليوم الذي يرضى فيه عنى الجاهل أو يجب برأى فيه البليد".^٢
 أبغض الأشياء عنده الكذب ، وأحب الأشياء عنده الصدق . فيبغض حتى المبالغة في
 البشاشة والإغراق في المحادثة . ويجب حتى العقاب المر والضرب المؤلم ما دام المتكلم صادقاً ومخلصاً
 فيما يقول ويذهب . لهذا السبب كان المنفلوطي يحب العزلة وكان يحيل إلى اجتناب المعاشرة
 والمخالطة . لأنه اختلف عن الناس طبيعة . فطأه طلب منهم غير ما طلبوا بعضهم من بعض . فترفع
 عن مخالطة كل من لا تجبه أخلاقه ولا تجمل في نظره أطواره .
 بعد عن سفاسف الأمور وصغائرهما واتصف بالأنفة والعزة و رقة الفؤاد ، يتألم
 لما سى البشرية ويعطف على البائسين ويبرهم بكل ما يستطيع وبكل ما في وسعه وجهده . أصاب
 زوجته رمد أضعف بصرها ، فلم يدخر وسعاً في تسليتها . وفي هذا السبيل كلفها أعمالاً لا يصلح
 للقيام بها إلا الذين يقدرون على رؤية الأشياء . كان يرى من وراء هذا أن يوهمها أنه لا ينكر
 عليها من نظرها شيئاً .

١- عبد الفتاح ، أشهر مشاهير أدباء الشرق ، ص ١٨٣ ج ١

٢- أيضاً ، ص ١٨٤ ج ٢

سياسته:

سياسته سياسة كل وطني محب لوطنه الذي يبكي له حزناً عليه وعلى سوء حاله وفقدان استقلاله. من أقواله في هذا الموضوع "علمت أن حياة مصر لا تتم لها إلا بفقدان حياتي بكان سبيل الموت أشهى إلى من سبيل الحياة". كان مسلماً متعصباً لدينه، مدافعاً عنه وعن أهله بحماسة، مصرياً كارهاً للاحتلال الإنجليزي، شرقياً باغضاً للمدنية الغربية.

رأيه في الأحزاب أن تعدوها ضاراً بمصلحة الوطن ويعتقد أن من الواجب أن تكون الأمة الكاملة حزباً واحداً غير منقسمة. لأن وجود أحزاب متعددة يوجد أقطاباً وضعافاً بين أفراد الأمة. وهذه الاختلافات تنقص من استقلال الوطن. ويعتقد أن الجرائد بين جريدين، أحدهما يتابع في إرضاء الأمة ومحالاتها على كل ما ينفعها ويضرها في أمورها. والأخرى التي تقسو في إرشادها وهذه لا تستفيد منها الأمة كما يجب أن تكون الاستفادة منها. يرى المنفلوطي أن حاجة الأمة إلى قائد مخلص في عمله ما زالت شديدة إلى اليوم، وأيضاً إلى قائد جم الحكمة في قوله. ولم تكن بينه وبين جريدة من الجرائد علاقة خاصة، حتى لم يكن هناك نوع من هذه العلاقة بينه وبين الجرائد التي كان يكتب فيها رسائله. فلم يكن بينهما أكثر مما يكون بين أي كاتب يكتب رسائله مطلق الحرية في أية صحيفة يتوسل بانتشاره إلى نشر خيالاته وأفكاره. فيلاقيها في شيء من مبادئها ومذاهبها مصادفة و اتفاقاً أو يفارتها طوعاً واختياراً.

منزلة المنفلوطي في النشر العربي الحديث

المنفلوطي "هو أحد شعراء الأمة العربية وكتابها ومن أعظم أركان النهضة الأدبية الحاضرة الذين ساعدوا على رفعة شأن الأدب العربي وبلوغه الشأ والبعد الذي وصل إليه اليوم . وهو صاحب العلم البديع الجذاب المتفوق في جميع الأغراض والمقاصد حتى سمي بحق "أمير البيان"^١ . نالت جميع كتبه ومؤلفاته الخطوة العظمى في جميع البلاد العربية . وأسلوبه ذو تأثير خاص على نفوس القارئ فحس أنه يكتب لكل لسان ويترجم عن كل قلب ، وحاول الناشئون والمتأدون في المعاهد العلمية والأدبية أن يحتذوا أسلوبه الذي صار لهم المثل الأعلى .

نقل المنفلوطي قصصاً جميلة عن الفرنسية وكتب مقالات في الصحف . تناول في هذه المقالات موضوعات متنوعة منها الحياة الاجتماعية في بؤسها ومرض أخلاقها ، وإيثار الفقير على الغني ، والضعيف على القوى . كما ضرب أيضاً على الوتر الإسلامي الحساس في الدعوة إلى الإصلاح ، واستعادة المجد المفقود . وملك أقواله هذه أثراً في نفوس الشبان خاصة ، لأن حديث الحب والشقاء والموت والانتحار يثير عاطفتهم الملتهبة . وملك أثراً في نفوس المسلمين عامة لأن حديث الإصلاح والمجد القديم يجذب انتباه المسلمين ويؤثر على مشاعر كل مسلم .

١- أحمد عبده ، مشاهير شعراء العصر في الأقطار العربية الثلاثة مصر ، وسورية ، والعراق (مطبعة الترقى ١٩٢٤م)

نال المنفلوطي الشهرة في حياته بسبب إنشائه الجميل وتعبيره السهل، فأعجب
الناس بأدبه وجلسوا يطالعون قصصه ومباحثه. لكن هذه الشهرة تضائلت بعد موته، ويرجع
السبب في هذا إلى اتساع الثقافة الغربية ونهضة النقد الأدبي، بدون الجمال في إنشاء المنفلوطي
وقرب عهده ما استطاعت شهرته الشبوت إلى الوقت الحاضر. لأن مباحثه الاجتماعية ومنها
الإسلامية، رغمًا عن التأشير الذي تحدث في نفوس القارئ، غير حقيقة بالخلود وضعيفة في الجملة.
وهذا شأن القصص الموضوعة والمترجمة عنده. ضعف فنهما وانتشار الأدب الغربي عاملان كفيلا
بمحوها.

يعتبر المنفلوطي من الكتاب المجددين الذين بعثوا النهضة في القرن التاسع عشر. ولم
يتفصل عن التقاليد القديمة إلا لامتزاج بعصره ومن أجل أن يعيش في البيئة التي أوجد فيها. فقد
خرج عن الأساليب الموروثة في إنشاء والموضوعات المألوفة في الأدب، وأخذ من ثقافة الأجانب،
كما اعتمد في الغالب على عواطف وأفكار مستمدة من حاجات المجتمع واحتياجات وأحاسيس الصدور.
ترك طريقة الأدباء الذين كانوا يهتمون بزخرف اللفظ وروعة الفن فقط. وجعل له هدفًا في كتاباته،
فأدى أفكاره في لغة صافية قريبة إلى الأفهام، غير مقيدة بقيود الإغنيات والتكلف، وترك العقيد.
تركز شهرته بعض الكتاب على عمق التفكير وجودة وجدة المعاني. وهذا يضمن لهم
النفوذ في عصرهم والخلود في العصور التالية في الأدب العالمي. وتظهر براعة بعض الآخرين في
الأسلوب الكتابي. أثر هؤلاء الكتاب يكون وقتيًا وشهرتهم عارضة. وتضمحل وتقل قيمة ما أنتجوا
من فنون أدبية عند نقلها إلى لغة أخرى، فبذلك تعتبر مؤلفاتهم لأمتهم. والمنفلوطي من هذه
الطائفة التي تمتاز بالأسلوب، لا بجمهر المعاني، لهذا صارت كتاباته لأمة دون أخرى، وكتبه تقدير
معاصريه، ولكن هذا الأسلوب لم يرفعه إلى القيم الإنسانية الخالدة.

عشر المنفلوطي على أصول هذا الأسلوب في الشعر العباسي. ووجد سرا الجمال في اطراد

عبارات المقفع وموسيقى عبارات الحميد وطبيعة سياق الجاحظ . فاعتمد على هذه الصفات التي تجلّى له فيها سرائر الجمال، وأضاف إليها ما أوحى به شخصيته وإليه وموضوعاته من توقيع حزين في المواقف الأليمة، وتشابهه وصور مأخوذة من قلب الطبيعة الإنسانية والجمادية، ونبرة خطابية في مواقف التحريض .

أسلوب المنفلوطي خبرى مختزج بالخطابي على الغالب لما نجد عنده من المواعظ والنجوى، والتعريفات الخطابية البديمية، والتعريف الخطابي سهل المتناول يأوى إليه الكاتب عندما يفوته عمق التفكير وقوة التحليل ودقة النظر لإيجاد التأثير للنفوس في كتاباته . يوصف بإنشائه على الإجمال بالخطوات الهادئة والملامس اللينة، إلا في مواقف العصبية الدينية، نجد فيه رونقاً وماء وتطرفاً ورقة وحلاوة وأسجماً وديباجة مشرقة واضحة .

أسلوب المنفلوطي مختلف عن أسلوب الأزهريين الآخرين وبلغ نثره ما لم يتمكن منه أسلوب الأزهريين الذي يعتمد على الصنعة اللفظية وما ينبغي لها من تسجيع وتجنيس ونكت بديعية . لأن المنفلوطي لم يتتقف ثقافة أزهريّة خالصة، ودرس بنفسه بلغاء الكتاب المطبوعين، فتأثر بأساليبهم وانطبع بإنشائه عليها . فلم يجمع إلى التكلف المستهجن حتى في رسائله . والقصاص التي نقلها عن الفرنسية، طبعاً أثرت في أسلوبه فأحدثت فيه ألواناً جديدة وأعطت إنشائه جهة وألوانه . لكن هذا لا يعنى أن نثره متحرر من أثر تراث الأزهري تماماً، يحتفظ به في كتابته أيضاً . وهذا الأثر هو الإفراط في استعمال المترادفات وسعاقبة الجمل على المعنى الواحد، وإسهاب المديد الذي تفيض معه الألفاظ . وهو في إسهابه وترا دفه مثل الذي يتطوف في مزاجه لفظه ويستطرب بوقع نبراته بسبب ديباجته المشرقة ولغته الموسيقية .

قال المنفلوطي الشعر ثم عدل عنه إلى النثر . كان المنفلوطي من حمة المذهب الرومانسي الذين تحوروا من قواعد المدرسين في بداية القرن التاسع عشر . من ميزات الخاطبة تفوق الشاعرية

والخيال على العقل في الاتزان الفكري حتى يصح الحكم بأنه شاعر في كتابته كما هو شاعر في شعره، وأنه لم ينقطع عن الشعر في جميع أدوار حياته، وإذا نظرنا إلى الشعر من وجهة الإحساس والشعور وقوة التصور والخيال. كتب المنفلوطي مقالات وقصصاً عن الفضيلة والعدالة والانتصار للفقراء ونقد الأغنياء في أسلوب مليء بالانفعال العاطفي. من أعظم الممثلين للمذهب الرومانسي الفونسيودي

لامارتين (Alphonse de Lamartine) (١٧٩٠ - ١٨٦٩م) وكتور هيوغو (Victor Hugo)

بين الأدباء. ودي لاكروا بين المصورين، وشومان الألماني (Schumann) (١٨١٠ - ١٨٥٧م)

من الموسيقيين. وروسيو (Moussorgsky) (١٧١٢ - ١٧٧٨م) من الدعاة إلى هذا المذهب.

ميزة المنفلوطي الخاصة التي تميزه عن جميع معاصريه في الأدب العربي هي قدرته على تصوير

النفس الحزينة والقلوب المتألمة، وبيانها وشرحها لهذه الحالة النفسية بسيل الدموع ويزيب القلوب.

أسلوبه في النظرات والعيارات وفي بعض الروايات رق إلى المنتهى، وارتقى إلى المكانة التي اقتداه

المقلدون فيها، وقلده المقلدون.

المنفلوطي من الكتاب الذين يتبعون كتاب العربية الأدبي في علو تراكيهم وبلغة

أساليبهم ومع هذا يستطيعون أن يخوضوا في كتاباتهم غمار هذه المدنية الحديثة وأن يتناولوا به هذه

المعاني العصرية والآراء الجديدة التي حدثت بعد وقوف اللغة العربية عند الموقف الذي وقفت

عنده، محتفظين بنحوتهم في الكتابة ودرجتهم في الأسلوب. ويمكن أن يقال عن المنفلوطي أنه الكاتب

الفريد الذي يحافظ على أسلوبه البليغ في جميع حالاته وشؤونهم سواء في ذلك المعاني المطروقة

لكتاب العربية الأولى والتي لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يسموها أسلوباً. وهذا دليل واضح على أن

السليقة العربية ملكة من ملكاته.

هو الكاتب الوحيد في عصره أو أحد أفراد قلائد من الذين قدروا على التعبير عما في

نفوسهم كما هو في الحقيقة، لا أقل ولا أكثر. حتى قيل عن كتابات هؤلاء أنها صور حقيقية للأخلاق والصفات التي يتحلون بها. أجمع الذين عرفوا المنفلوطي وعاشروه على أنه متصل بجميع الصفات التي يتكلم عنها كثيراً في رسائله ويتشيع لها. ومن ضمن الصفات التي ذكرت عنه أدبه النفسى وكرم أخلاقه وسعة صدره وجوديده وأنفته وعزة نفسه وترفعه عن الدنيا وأعطفه على المنكوبين والمساكين ورقة طبعه ودقة ملاحظاته وطف حديثه وسدّة حياته وكمال أدبه. وهي بعينها كتبه ورسائله مثل الوفاء والغنى والفقر، وقتيلة الجوع، وعجائز بوشنج، والشهيدتان، والزهرة الذابلة وغيرها.

هو الكاتب الوحيد الذي يستوى في فهم معانيه وأغراضه وفي الإحجاب بمصاحته وبيانه فطاحل الأدباء، وأصاغر البسطاء. مما يدل على أنه يكتب بقلبه وبعقيدته لا بقلمه^١ وأنه يحدث اللغظة والصدور. لا الصمائم والسطور^٢. كتابة المنفلوطي بقلبه وبعقيدته جعلت إنشائه مشبعاً من نفسيته وعاطفته الرقيقة. فكل عبارة من عباراته أخفت في نفسها فلفة من قلبه. وهو قلب الرجل الوفي المخلص الذي وقف على وطنه ومجتمعه ودينه حبه وجهوده. لهذا أسلوبه ذو أثر عميق، على ما فيه من بعض الهفوات والعيوب. فكان حجة على الذين يتهمون النثر العربي بالجمود، ونموذجاً جرت عليه طائفة من الجيل المثقف. وفتح، بهذا، باباً جديداً في الكتابة يروق النفس العربية الحديثة.

لما اعتبرنا القول بأن الكتاب المجيد في هذا العصر يستمدون روح كتاباتهم من اللغات الأجنبية ويستنزلون من سماء طبائع شعراء الإفرنج وحي خيالاتهم الشعرية صحياً^٣ فالسيد المنفلوطي يعتبر نادرة كتاب العربية في هذا العصر لأنه لا يعرف لغة غير اللغة العربية ولا

١- عبد الفتاح، أشهر مشاهير أدباء الشرق، ص ١٨٧، ج ١

يلجأ إلى وحى غير دحي الخواطر النفسية .

حيث أن المنفلوطي كان لا يعرف لغة غير العربية ، كان أصدقاؤه يترجمون له ، وكانت طريقته أن يأخذ ما ترجم له ويمصره تصيراً مع حرية واسعة ، حتى لكأنه يعيد كتابته وتأليفه من جديد . وهذا التأليف قائم على الاسترسال الإنشائي والانطلاق الوجداني والوعظ الأخلاقي . لا مجال للشك في أن المنفلوطي أفسد القصص الفرنسية المنشورة في "العبرات" بتقصيره ، فأحالتها عن أصلها . يبدو من هذا أنه ظن القصة مجموعة من المقالات في غير حبكة ، وأحدث في هذه القصص تغييراً واسعاً بدون إحكام . فكانت شققة موهبة القصاصين . يتضح هذا الأمر في قصصه التي حاول تأليفها فينقصها الخيال والدقة في مراقبة أحداث الحياة وتجارب الأشخاص ، وطرافة المفاجأة . والشئ الذي يجيب به القارئ في هذه القصص هو الأسلوب المصنفي الذي يتميز به المنفلوطي . وهذا الأسلوب أتاح لمقالاته أن تذيع وتنتشر في الناشئة من عصره وبعدها أيضاً . جمع هذه المقالات وطبعها باسم النظرات .

ونورد هنا بعض الأقوال التي تبين لنا منزلة المنفلوطي وبعض خصائصه الأدبية . يقول حافظ إبراهيم " المنفلوطي حسن الديباجة ، منسجم الكلام ، رقيق المعنى " . وولي الدين يكن يقول " السيد مصطفى لطفى المنفلوطي رجل من كبار كتاب القلم في زماننا ، فهو من كتاب الطبقة الأولى وشعراء الطبقة الثانية " . و قول بطرس البستاني " إذا كان للمنفلوطي من فضل ، فإنه يعود على تلطيفه أذواق كتّاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً ، وعلى خروج أسلوبه من الجزالة القديمة إلى النعومة الحديثة . ومن السجع المصنوع إلى المرسل المطبوع . ومن القوالب التليدة إلى التعبيرات الطريفة . وإنه وإن لم يبلغ في

١- عبید، مشاهیر شعراء العصر، ص ٣٤٣ ق ١

٢- أيضاً، ص ٣٤٣ ق ١

تفنه واختراعه طبقة الكتاب المجيدين، لقد ارتفع بحسن إنشائه إلى المنزلة الأولى بين المترسلين^١. ويرى الدكتور شوقي ضيف قصوراً في ثقافة المنفلوطي وأنه لم يكن ممنوع التفكير. لهذا يقول:

ومن هنا خفت بين أدباءنا الحدة المنفلوطية لإرضاء العاطفة، فقد أصبحوا يطلبون في كتاباتهم إرضاء الذهن بغذاء عقلي خصب. وما أشبه أدب المنفلوطي في عباراته الرصينة المنمقة بالآنية المزخرفة، ولكنها آنية قدامت غذاء للذهن والفكر، ونحن نطلب اليوم الغذاء الفكري بأكثر مما نطلب الوسائل التي تؤديه. ولعل هذا ما جعل المازني يحمل عليه في كتاب "الديوان" غير أنه يقسو في حملته.

ومن الواجب أن نقيس الأديب بمقاييس عصره، وأن نحكم عليه بظروف بيئته، وأن لا نشقل به إلى عصورنا لنستمد منه مقاييسنا عليه، والمنفلوطي من هذه الناحية أدى لمصر في أوائل القرن، وإلى الحرب العالمية الأولى آثاراً أدبية بلغة، وكانت هذه الآثار المثل الأعلى للشباب في إنشائهم وفي صقل أساليبهم^٢.

تصانيف المنفلوطي

نظم المنفلوطي الشعر الرائع، وأبدع فيه لكنه لم يشتغل بنظم الشعر إلا بضع سنين في بداية نشأته، ثم عدل عنه إلى كتابة النثر. ويبدو أنه كان قليل الاكتراث بحفظ ما ينظم من الشعر، فضاع

١- البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص ٣٩٧

٢- ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص ٢٣٤

أكثره مع الزمن. ولم يبق منه إلا الجزء اليسير الذي حفظته الصحف والمجلات متفرقاً. وشعر المنفلوطي ضعيف وأغراضه مختلفة . يقول محمد إمام العبد "المنفلوطي شاعر انقادت له القوافي اشادة" وهو صنين بشعره ضمن الكوريم بعرضه ، وتدبجه كالذهب المسبوك ، وهو طاهر الشعر والضمير ، نزيه النفس ، صافي السريرة ، ماسعته متغزلاً ، ولا لحنه متكبراً^١ . ويقول حسين وصفى رضا "المنفلوطي متحير الألفاظ متين القوافي ، طويل النفس". أما المنفلوطي نفسه يصف شعره بالقول "المنفلوطي شعره كالعقود الذهبية ، إلا أن حبات اللؤلؤ فيها قليلة ، فهو يخلب بروائعه أكثر مما يخلب ببدائعه"^٢ .

فيما يلي ذكر تصانيفه :

مختارات .

جمع في هذا الكتاب طائفة اختارها من أشعار المتقدمين ومقالاتهم ، ويبلغ ثلاثة أجزاء ، لم يطبع منه إلا جزء واحد . اختار هذه المجموعة لطلاب المدارس .

النظرات .

كتابه هذا في ثلاثة أجزاء . وهو موضوع الدراسة في الفصل التالي ، فيما أتى فيه ذكره

بالتفصيل .

١- عبيد ، مشاهير شعراء العصر ، ص ٣٤٣ ق ١

٢- أيضاً ، ص ٣٤٣ ق ١

٣- أيضاً ، ص ٣٤٣ ق ١

العبرات.

لهذا الكتاب جزء واحد، وهو مجموعة قصص، من أبلغ ما كتب الكتاب في حسن أسلوبها ورقة نسجها وقوة تأثيرها على النفوس. تغلب عليها صبغة التشاؤم والحزن. نشر المنفلوطي في كتابه "العبرات" طائفة من القصص القصيرة لبعض الكتاب الفرنسيين، بعد أن صورها بحرية التصرف والتحوير الواسع، وهي الشهداء، الذكرى، الجزاء، الضحية. وأضاف إليها بعض قصص من تأليفه وهي اليتيم، الحجاب، الهاوية، العقاب. وجميعها قصص حزينة باكية. وفي آخره مذكرات مرغريرت. وله روايات مستقلة نقلها، على حدة، من الفرنسية وهي كما تلى.

الشاعر (سيرانودى برجراث).

هي ترجمة رواية سيرانودى برجراث الفرنسية من تأليف الشاعر الفرنسي "ادمون روستان" وهي من روايات النواجع المؤثرة "التراجيدى". شهرتها انتشرت وعلت بين أبناء اللغة العربية في جميع ابلاد. تصرف المنفلوطي في هذه الترجمة كتراجيدى أخرى على هواه، مخالفاً للأصل. هذه قصة تمثيلية فجعلها غير تمثيلية. جاء في كتاب الوسيط في الأدب العربى وتاريخه اقتباس من هذه الرواية :

الشاعر يرى الجمال فى كل شىء يتناوله سمعه وبصره، حتى فى الزهرة الذابلة والنبته المائلة، والنحلة الطائرة، والفراشة الحائمة، وفى مدارج النمل، وأنماحيص النطا والنوى المستهدم والجدث البالى والشبح المخيف، والخيال الرائع، وفى الضفدعة على شاطئ البحر، والدودة فى باطن الصخر، فهو من خياله الواسع فى نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى.

أنت كالطائر السجين فى قفصه، فمزق عن نفسك هذا السجين الذى يحيط

بك، وطربنا حاك في أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح، وتنقل ماشئت في جنباته
وأكنافه واهتف بأغاريدك الجميلة فوق قمم جباله، ورؤوس أشجاره، وضاف أنهاره
فأنت لم تخلق للسجن والقيء بل للبهجة والتفريد!

الفضيلة (بول وفرجينى).

هذه قصة لبرناردين دى سان بير (Bernardin De Saint Perre).

من القصص التى قام المنفلوطى بتفسيرها. برناردين دى سان بير كاتب فرنسى مشهور، قام بجولة فى
البلاد حتى وصل إلى جزيرة موريشيس. وكتب هذه القصة بعد أن سمعها من شيخ هرم الذى قضى
حياته فى هذه الجزيرة مع بول وفرجينى ومع أميهما مرغريت وهيلين. كانت فرجينى أصغر من بول بسنة
واحدة، وكانا يسكنان فى كوخين صغيرين ويعيشان على المزرعة الصغيرة.

كان بول يلزم فرجينى وكان لا يفارقها فى حين من الأحيان. كان يريد أن تكون له
صديقة صديقة وأحست هيلين بمرامقتها وأرادت أن تفرقهما فترسل فرجينى إلى فرنسا للتعليم والتربية.
فأرسلتها إلى باريس عند عمته. فبدأ بول يحول كبحون فى الأرض الفقيرة لا يستكين ولا يطمئن إلى أحد.
لكن فرجينى لم تلق أية محبة ولا وداد من عمته، فغزمت على الرجوع إلى جزيرتها موريشيس
على ظهر باخرة. وكتبت إلى أسها هيلين بأن عمته أزعمت على تزويجها الرجل ثرى. وهى لا تحب هذا الرجل
أبداً، فهى مصممة على السفر إلى موريشيس.

علم بول هذا الخبر فبدأ يذهب كل يوم إلى شاطئ البحر وينتظر وصول السفينة. رأى فى عصر
يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤م علماً أبيض خائفاً على قمة الجبل. والسفينة كانت تبدو وتغور فى أمواج

المياه العاصفة حتى حدث أن عجزت عن مقاومة التيار وتشققت وبدأ الماء في التسرب إلى أحشائها.
وعلم الركاب في هذه السفينة أنهم هالكون فألقوا بأنفسهم في البحر.

بول أيضاً ألقى نفسه في البحر وحاول أن يصل إلى المكان الذي كانت فرجينى تطفو فيه
على قطعة من أخشاب السفينة، فأراد ضمها إلى صدره والسبح في الماء لكن فرجينى استنعت عن غناقه
وغرقت في الماء.

عند هدوء الزدبعة خرج الناس في تفتيش جثث الموتى، فراء واجثة فرجينى في حالة غرقها
في الرمال وقبض أناسها على صورة الرسول بول التي كان بول قد أهداها إلى فرجينى قبل سفرها إلى فرنسا
فحملوا جثتها إلى الكوخ ثم دفنوها في كنيسة بابلوس ولم يخبر أحد بول عن موت فرجينى ودفنها في
الكنيسة، إلا بعد أيام. عندما بلغ بول هذا الخبر أراد أن ينتحر ولكن الشيخ الهرم منعه من هذا، ف قضى
أيام حياته الأخيرة وحيداً شريداً مستوحشاً هائماً، حتى فاضت روحه لما كان جاثياً على قبرها.
توفيت مرغريت بعد ثلاثة أيام من وفاته، وماتت هيلين بعد شهر. وخادمة هيلين
مارى دخلت مرغريت دو مينج لحقا بمرغريت دهيلين بعد بضعة أشهر.

الأستاذ محمد عثمان جلال (١٨٢٩ - ١٨٩٨م) ترجم هذه القصة أولاً تحت عنوان
"الألماني والمنه في حديث قابول ووردجته". لكن لغة هذه الترجمة كانت مقيدة بأغلال السجع والقافية،
ثم ترجم هذه القصة المنفلوطى مرة ثانية ونشرها باسم "الفضيلة". أيضاً نظم المنفلوطى هذه القصة في
قصيدة، يقول فيها:

يا بنى الفقر سلاماً عاطراً من بنى الدنيا عليكم وثناً

١- محمد يوسف كوكن، أعلام النثر والشعر في العصر العرفى الحديث (حيدرآباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية،

رواية في سبيل التاج .

هذه مأساة شعرية تمثيلية من وضع فرانسوا كوبيه (Francisco Coppee) (١٨٤٢-١٩٥٨م) في سنة ١٨٩٥م باسم (Pour La Couronne). ترجمها المنفلوطي وحولها إلى رواية غير تمثيلية.

نقل المنفلوطي موضوع هذه المأساة إلى اللغة العربية في قالب روائي جميل، بعد أن حذف منها أشياء وأضاف إليها أشياء أخرى. فأخرجها في شكل قصة، يستهوى أسلوبها القلوب، وتستريح وقائعها العقول. عبارته رقيقة وديباجة بدیعة في هذه الترجمة. يقال عن هذه المأساة أنها خير ما أخرج للناس من عهد جان راسين (John Racine) (١٦٣٩-١٦٩٩م) إلى يوم ظهورها. لخص الكاتب هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة من سنة ١٩٠٩م. أودحت إليه الحوادث السياسية صفحات تفيض وطنية وغيرة، حتى تجعل القارئ يحس أن الكاتب قد أفضى في هذه الرواية إلى أمته بكثير مما لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية. كان الناس يعتبرون على المنفلوطي في سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العالمين في هذه الحركة حتى قرأوا هذه الرواية فوجدوا غير ما كانوا يظنون. فروح الكاتب الوطنية الشريفة تظهر فيها واضحة والرواية رواية الحركة الحاضرة. بجميع ظروفها ومتعلقاتها.

تشرح هذه الرواية سيرة قسطنطين بن ميشيل برانكومير، بطل من أبطال الوطنية. قد جمع الله لهذا البطل من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة والإخلاص والتفحية من القرن الرابع عشر، عند دخول الترك أرض البلقان، وعند تحويلهم كنائسها إلى مساجد، وفرض الأتاوات الثقيلة على أهلها، وغزل ملكها الذي كان يحاربهم ويناولهم. وعند ما جعلوا ميلوش ملكاً عليها من أهلها. فبقيت بلقان في حكم الأتراك لعهد طويل، عانت فيه من أنواع الذل والهوان ما يعانيه كل شعب مغلوب

على أمره. أخذ الأسقف الأتني ينقل في أنحاء البلاد ويحشى بين قبائلها وشعوبها يدعوا باسم الدين مرة والوطنية أخرى. وكان يستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من حكم الأتراك حتى جمع كلمة الأمة الكاسلة من حوله على اختلاف عناصرها منذ أصبها.

ثم أظهر رأيته للملك ميلوش أن يخلع طاعة الترت ويغرد دعائهم لكنه جبن في بداية الأمر ثم انقاد لرأيه. وجه الأتراك إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيماً بقيادة أرفغول باشا وهو أحد أبطالهم. فثار جميع رجال ونساء البلقان للذود عن أنفسهم وعن وطنهم. واختاروا الأرميسيل برانكو مير القائد البلقاني العظيم قائدهم فاستمروا في محاربة الأتراك عدة أعوام حتى عجز القائد التركي بأمره ورأى أنه لا حيلة له فيه إلا من طريق المكيدة والدسيسة.

واتصلت بازليد، وهي الزوجة الثانية لبرانكو مير مع هؤلاء الماكرين من الترت، فتأهبت على إغاثة مؤامرة دنيئة بين برانكو مير والقواد الترت. كان الغرض من هذه المؤامرة أن يخلى برانكو مير تحنوم المملكة من حراسها هذه الليلة لتتمكن الجيوش التركية من هجومها على القلعة والقبض عليها. بلغ قسطنطين خبر هذه المؤامرة من فتاة نورية ملتزاً وكان يحبها حباً حميماً. فتقدم قسطنطين في ظلامه الليل إلى الروابي يشعل ناراها، فيراها جميع حرس الروابي فيشعلون نيرانهم وهكذا ينهض الجيش للذود عن الوطن. لكن والده نهاه عن التقدم إلى الرابية. فامتطى قسطنطين على هذا شهر سيفه فقتل أبيه. فجرد برانكو مير سيفه وهجم على ولده بحجة قوية. ثم في جولة أوجولتين حكم القاضي العادل حكمه وهو سقوط الظالم ونجاة المظلوم.

ودارت معركة هائلة بين قسطنطين والترت لمدة ساعة، انهزم فيها العدو إلى مقامه الأول. لما علمت بازليد بأن قسطنطين قاتل أبيه دست دسيئة وأثارت الفتنة وقالت أنه هو الذي دعا قواد الأتراك وجيوشهم لها جهة بلدهم، حتى يجلس هو على عرش البلقان. فأعطت الملك الأسقف تلك الوثيقة التي تمت بين أبيه وبين الجاسوس، فارتاب في أمر قسطنطين وأمر الحراس بالقبض عليه.

والنرج به إلى السجن حتى يفصل القضاء في أمره.

حاول الملك وأراد معرفة الحقيقة، لكن قسطنطين ما نطق شيئاً فانفصل الأمر بقتله في يوم مخصوص، فظهرت ملتيزا في ذلك اليوم وطلبت من قسطنطين أن يعترف بالحقيقة ولكنه قال بأنه لا يستطيع ذلك. فطعنت ملتيزا قسطنطين في صدره طعنة نجلاء وهي تقول: "مت شريفاً أيها الرجل الكريم العظيم كما عشت شريفاً"،^١ ثم طعنت نفسها أيضاً، فسقطت على مقربة منه. تأثرت نفوس الجماهير بهذا المنظر الرهيب وسكتوا سكوتاً عميقاً في مواقعهم واستمروا في هذه الحالة لمدة ساعة حتى تكلم الملك فقال: "أيها المسيحيون صلوا جميعاً لهذين البائسين الشقيين واسألوا الله لهما الرحمة والغفران".

بقيت هذه الحقيقة مجهولة عن الناس جميعاً خمساً وثلاثين سنة حتى حضر بازيليد الموت. فكانت تهذى بهذه الحقيقة في مرضها وتتألم لذكرها بشدة على سماع من الناس، فسمع الناس وعلموا هذه الحقيقة بعد مدة طويلة وبعد تغيير شئون البلقان. وفاضت روحها. وعرفوا أن قسطنطين هو أعظم الناس وطنية وأخلاقاً وأنه أشرف الناس وأفضلهم لأنه ضحى أباه من أجل إنقاذ وطنه، ثم ضحى بنفسه في سبيل إنقاذ شرف أبيه.

تحت ظلال الزيزفون (ماجدولين).

هذه الرواية من إحدى الروايات الفرنسية، ومن القصص التي أعاد تأليفها المنفلوطي.

هذه الرواية غرامية اجتماعية لألفونس كار. لا يوجد في الأدب العربي مثيل لهذه الرواية في بلاغة

١- كوكن، أعلام الشر والشعر في العصر العربي الحديث، ص ٤٩ ج ١

٢- أيضاً، ص ٤٩ ج ١

أسلوبها، وبراعة أوصافها والقدرة على تصوير العواطف البشرية على اختلاف صورها وأنواعها. اشتهرت هذه الرواية وذاعت بين أبناء اللغة العربية في جميع الأقطار، وهي من روايات الفواجع المؤثرة "التراجيدى".

نجد في رواية "ماجدولين" مكاتبات بين ماجدولين وصديقتها سوزان وبين ماجدولين واستيفين. كان استيفين فقيراً صالحاً وأديباً شاعراً. وأحب ماجدولين بأعماق قلبه، وكذا كانت ماجدولين تحبه حباً جماً. لكن سوزان أغوتها فشجعته على الزواج من إدارد الثرى، الذي ذهب إلى أمريكا بعد مفارقتها بعد أشهر قليلة. وانتهز إدارد بعد خيبته في المقامرة، وولدت ماجدولين طفلة. عند ما بلغ استيفين هذا الخبر ذهب إليها ليعطها بالصبر على مصيبتها، فتحدثا عن الحب الماضي فوجدها تحبه إلى الآن ولكن أخذته أنفة غزاة الرجل، لهذا أعادها إلى بيته. فبست منه ماجدولين وأخذت الطفلة في سفطة وتركها عند باب استيفين وتركت معها مכתوباً. ورمت نفسها في أمواج الماء في النهر. لما علم استيفين بذلك مضارع إلى النهر وحاول أن ينقذ ماجدولين من أمواج النهر بمساعدة أصدقائه وزملائه. لكنها ما تجت بل ماتت مدفونها في بقعة. وقد كانت ماجدولين استعلفت ^{استيفين} ~~استيفين~~ ألا ينتقم من طفلتها ويقوم بتربيتها فيحسن تربيتها ويرزقها بالشباب الذي تحبه.

منذ هذا اليوم أصبح استيفين كئيباً مستوحشاً وأصبح خائراً النفس منقبض الصدر، فلا يرى في الحياة لذة وصار مريضاً فلا يبرأ من مرضه. وأوصى إلى فريدرك أن يجمع جميع ألحانه في كتاب واحد، وأوصى إلى سيدروف أن يكتب تاريخ حياته كما يعلمه فرتز ثم ينشره في الناس، وإلى فرتز بدفنه مع ماجدولين في قبرها وأن يتولى شأن طفلتها الصغيرة ويحميها من جميع ما يحى منه أهله وولده. وعند بلوغها سن الشباب يرزقها من الزوج الذي تختاره لنفسها، وتوفى ودفن في البقعة التي دفنت فيها ماجدولين.

وتولى فرتز شأن هذه الطفلة وقام بتربيتها مع ولده برنارد، ثم زوجها مع ولده.

الفصل الثالث

النظرات

شئ عن النظرات

من الآثار التي تركها المنفلوطي كتابه "النظرات" في ثلاثة أجزاء. بدأ المنفلوطي في سنة ١٩٠٧م بمراسلة جريدة المؤيد للشيخ علي يوسف البلففوري بمقالاته الشيقة. وكانت المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة تطبع هذه الجريدة. استمر المنفلوطي ينشرها نحو عامين وكان ينشرها أسبوعياً تحت عنوان "الأسبوعيات". والنظرات هي مجموعة هذه الرسائل. "وهي مبدأ شهرته المستفيضة ومطلع شمس نبوغه".^١ تشمل النظرات المواد الموضوعة والمترجمة.

كتبت النظرات، من حيث الشكل، في أسلوب نقي خالص. لا يوجد فيه شئ من العاسية ولا شئ من أساليب السجع الملتوية، باستثناء ما يأتي منها عفواً. قرأ المنفلوطي مع

١- عبيد، مشاهير شعراء العصر، ص ٣٤١ ق ١

استيعاب قراءاته. وما عاش على تقليد كاتب قديم بعينه، بل حاول أن يكون له أسلوبه الخاص به. تظهر في كتابته آثار القدماء إلى درجة أن القارئ يحس أحياناً أنه يحتذى نشر الجاحظ أو نشر بديع الزمان، لكن هذا الاحتذاء أو النقل يدخل في كيان تعبيره بحيث يصبح كأنه تعاد كتابته من جديد. وهذا يسمى "شخصية الكاتب"، فجميع ما يكتبه الكاتب يطبع بطابعه. وهذه عملة خاصة بالكاتب، تنبع من فكره وقلبه، وتعطيه سماته الخاصة به. بسببها يقبل القارئ عليه عند قراءته، لأنه يجد عنده الشيء الذي يحدث لذة فنية في نفسه. فهذا أثر أدبي حقيقي، يمس قلب القارئ ويشير عاطفته.

ومن الواضح أن المنظوطي يحاول أداء موضوعاته في النظرات أداءً فنياً، يتخبر فيه اللفظ. ويحاول أن يجعل له أثراً في سمع القارئ وجدانه. ونراه متأثراً في هذا بطريقة القدماء الذين كانوا يوجهون العناية إلى الجرس الموسيقي للكلام، وانتهت بهم هذه العناية إلى السجع. "ولأن الناس لا يقرأونه بأبصارهم في الصحف، بل يقرأونه أو يسمعونهم بأذانهم على طريقة القدماء قبل أن تتحول القراءة من السمع إلى البصر".

يذكر حنا الفاخوري النظرات فيقول: "كانت "نظراته" الأسبوعية التي ينشرها في المؤيد قد لفتت إليه الأبصار بما انطوت عليه من متعة الموضوعات وجاذبية الأسلوب". وورد ذكر النظرات في كتاب "الوسيط في الأدب العربي وتاريخه" هكذا:

وأعد نفسه لها بقراءة كثير من القصص الممتعة المكتوبة بالعبارات الرائعة، ثم عكف على الأغاني فاختار أصفى عباراته، وأكثرها حوكاً في الصدر، وقرأ للسمع، ثم كتب بطريقة

١- ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ٤٣٤

٢- الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ١٠٨١

هذه كثيراً من المقالات في الصحف، فكانت تشرب لها النفوس، وترتاح إليها العقول لما فيها من التراكيب المختارة، والأساليب الرقيقة. وكتابه النظرات موزدة هذه المقالات ونتيجة هذه الدراسات الطويلة.^١

وفي "أشهر مشاهير أدباء الشرق":

النقت القارئون لطلائع رسائله المشهورة في جريدة المؤيد سنة ١٩٠٥ ثم زحفوا إليها ثم تراحموا عليها تراحم الإبل البهيم على وردها فكانوا يعدون لها أيام الأسبوع يوماً بعد يوم ويترقبون لرؤيتها ما يترقب الفضال في ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع. وانطأ في المهمة القفر من الغيث الهامع. فكانت ترد عليه الرسائل العديدة عشتات ومئات من أدنى مصر إلى أقصاها ومن كافة الأقطار العربية متضمنة الأسئلة المختلفة في الحوادث والوقائع والمسائل الاجتماعية والأخلاقية، فأصبحت الأمة تعده منازلها الذي تهدي به في الخلمات الشبهات ومثلها الذي تعتمد عليه في حل المشكلات. ولا أظن أن الأمة العربية لهجت ببيان كاتب وجمال أسلوبه ودقة مسلكه في هذا العصر الأخير شغفها برسائل المترجم. ولا أظن أن السبب في ذلك إلا أنه قد فاجأهم من ذلك الأسلوب العربي الضيق بالابدنهم بمثلها، إلا في رسائل بلغاء الكتاب الأدبية ومراسلاتهم الخصوصية. بعدما تلوثت أقلام أكثر الكاتبين في الصحف باللهجة الإفريقية تارة والصحافية تارة أخرى.

وسوقى ضيف يذكر هذه الناحية "ومن المحقق أنه لم يكن منوع التفكير بسبب قصور ثقافته، إذ لم يطلع على آفاق جديدة، توسع ذهنه ومداركه. ولعل ذلك ما يهبط في عصرنا الحاضر بنظراته، فقد اتسعت معارفنا، ومنت صلتنا بالغرب، بل لقد تحول إلينا كثير من عيونه وذخائره النفيسة، وكثر بيننا من يطلعون على آثار

١- الإسكندري، غناني، الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، لاغ.

٢- عبد الفتاح، أشهر مشاهير أدباء الشرق، طابع.

القوم في نعمهم كما كثروا بيننا من يحسنون التفكير والتفعل فيه إلى أعماقه وخفياته^١.

النظرات والمنفلوطى

نجد في النظرات الإشارات التي تشير إلى بعض من حقائق أو أحداث حياة المنفلوطى وكذلك العلامات التي تدل على بعض العناصر التي تشترك في تكوين شخصيته. وهكذا نرى نواحي من أخلاق المنفلوطى وعاداته وصفاته ونظرياته منعكسة في النظرات.

ما يتعلق بحياته:

لم يعيش المنفلوطى حياة هنيئة طيبة. بل عانى شقاء في سبيل الحصول على ما يقيم به أوده. يشير إلى هذه الحقيقة في "اناشئ الصغير" حيث يقول: "نى ولد وحيد فى السابعة من عمره، لا أستطيع على حى إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدى غنياً لأنى فقير". ويقول في المقدمة: "وكنيت إنساناً بأبساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المريرة لم يرمني به، ولا جرعة من كأس مصائبه ووزاياه لم يجرعني إياها، فقد ذقت الذل أحياناً، والجوع أياماً، والفقر أعواماً، ولقيت من أبسائها الحياة وضرتها

١- صيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص ٢٣٣

٢- مصطفى لطفى المنفلوطى، النظرات (القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٣٧٥هـ) ص ٣

ما لم يلق بشرًا. يقول مخاطباً الشعرة البيضاء: "ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه؛ ولم يذق حلاوة الحياة، فيجزع لحرارة الممات، ولم يستنشق نسيمات السعادة غصناً رطباً؛ فيأسى عليها عوداً يابساً".

مات طفله في أسبوع واحد. يذكر هذا الحادث المحزن الأليم في رثائه الذي كتبه بعد موت طفله الثاني بعنوان "الدين الصغير" يقول فيه: "دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخوكما فأنا في كل يوم أستقبل زائرًا جديدًا، وأودع ضيفًا راحلاً فيا لله لقلب قد لاقي فوق ما تلاقي القلوب، واحتمل فوق ما تحتل من فواجح الخطوب".^٣

أصاب زوجته رمد أضعف بصرها من أجل كل ما في وسعه لتسليتها، من أجل هذا أطفنها أعمالاً لا يصلح للقيام بها إلا المبصرون. وكان يرى من وراء هذا أن يوهمها أنه لا ينكر عليها من نظرها شيئاً. وكان حريصاً على إبقاءها معه. يشير إلى هذا في "الوفاء" حيث يقول عن نفسه:

راني محدثك عن صدق لي من كوام الناس وأوفياء لهم تزوج امرأة حسناء
فاعتبط بها برهة من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجك، ولم يترك لها من
ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حاشية الأفق، فلم يقنعه من
الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحوص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من
أمرها شيئاً، فكان يعتب عليها في بعض الأحيان في أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا أناساً طوي
المبصرون، يريد بذلك أن يلقي في روعها أنه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة، وأنه لا يرى

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٩١، ج ١

٢- أيضاً، ص ١٣٤، ج ١

٣- أيضاً، ص ٤٩، ج ١

شيئاً جديداً طرأ عليها، رحمة بها وإبقاء على ما كانت تحب أن تحاول من الاعتداد بنفسها
والإدلال بمزاياها.

توفي المنفلوطي في سنة ١٩٢٤م وهو في الثامن والأربعين من عمره. ولعله أحسن بدناً أجله
بعد بلوغه سن الأربعين، فكتب "الأربعون" يرثي شبابه يقول فيه: "الآن وصلت إلى قمة هرم
الحياة، والآن بدأت أعثر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل
إلى السطح بسلام، أو أعثر في طريقي عشرة تهوي بي إلى المصارع الأخير هويًا".

لقد كان من عادة المنفلوطي، عندما كان طالباً بالأزهر، أن يفترض السواخ لدراسة الكتب
الأدبية مع أن قانون الجامع لا يسمح به. لأنه ما وجد في الأزهر ما يروى غليله منه. وكان شيوخه إذا طفروا
بكتاب منها في يده عنفوه وعاقبوه، وهو لا يرددها عنها تعنيف ولا عقاب. يقول في المقدمة للنظرات مشيراً إلى
هذا الأمر:

فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلجأ بمرى -
وقليلاً ما كنت أجدها - وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون فإذا عثروا في خزانتى
أو تحت وسادتي أو بين لفائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب سئل إليهم أنهم قد
طفروا بالدينار في حقيبة السارق، أو الزجاجة في جيب الغلام، أو العشيق في خدر الفتاة،
فأجد من البلاء بهم والعصص بكانهم ما لا يحتمل مثله شلى؛^٣

لقد وقع المنفلوطي في حياته في صداقة كثير من أصدقائه وعشرائه الذين أحسن إليهم وكانت

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٠٦.

٢- أيضاً، ص ٣٣٤.

٣- أيضاً، ص ١٢١.

له اليد في تعليمهم أو تقويمهم، ثم عذر هؤلاء معه. يقول المنفلوطي: "فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سرّاً، ولا استندت مرة فنفس عني دائن، ولا دنت فوقي في مدين، ولا ردني مستعير عارية، ولا شكر لي شاكر صنيعه".

ما يتعلق بشخصيته:

كان المنفلوطي ليشفخف بالأدب وبرداسة الكتب الأدبية وكان يجد هذه الدراسة نافعة في تغذية عقله. يذكر أهمية الأدب ودراسته:

فلولا الأدب ما استطع أن أستمع المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دونها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين: ولولاه لما استطع علماءهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم، ويدلون بها بحججهم منها على الناس جميعاً، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيدة المتأرب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع أقداسه في فهم أصول الدين ليكون مجتهداً وإن استطاع أو واقعاً على سائر المجتهدين، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقاصها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً وسعياً نافعاً.

إيمانه بالله سبحانه وتعالى قوى، لا تؤثر عليه الفواجع التي تأتي في الدهر. وثقته بالله عظيمة

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٢٠

٢- أيضاً، ص ١٠٢

في حلتيه العسر واليسر والشدة والرخاء. قد وهب الله عز وجل صبراً جميلاً على عظام الرزايا والحوادث.
وخير دليل على صبره هو قوله على موت طفل له :

الآن نفقت يدي من تراب قبرك يا بني وعدت إلى منزلي كما يعود القائد
المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دمة لأستطيع إرسالها وزفرة لأستطيع تصعيدهما.
ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك
فوزقني بك قبل أن أسأله يا لك، ثم استلبيك قبل أن أستعفيه منك، قد أراد أن
يتم قضاءه في، وأن يجرعني الكأس حتى ثملتوا فخرني حتى دمة أرسلوها أو زفرة
أسعدها، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أفرج به مما أنا فيه، فله الحمد راضياً وناعماً
وله الشاء منماً وسالماً، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه !

حياته حياة ذاتية . فهو لا يهتم بالحياة الإضافية التي يحياها كثير من الناس الذين لا
يعرفون حياتهم إلا كما يريدونها لهم غيرهم، لا كما يريدونها ويشتونها لأنفسهم . يشير إلى هذا النوع
من الحياة كادها لها ومفضلاً عليها الحياة الذاتية فيقول في "الحياة الذاتية" "إذا كانت حياة كل
إنسان متلاشية في حياة الآخرين، فأى مانع يمنع من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكثرة
متعددة، إنما هي حياة واحدة، يتفق جوهرها، وتتعدد صورها".^١ و"أية قيمة لحياة امرئ لا محل له
فيها إلا المعالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس، فيأكل ما لا يشتهي، ويصدق نفسه عما تشتهي".^٢
ويقول :

نعم قد يكون الوبع برضاء الناس والخوف من سحقهم مذمباً من مذاهب الخير وطريقاً

١- "تفلولي، النظرات"، ص ٤٧ ج ١

٢- أيضاً، ص ٤٧ ج ٢

٣- أيضاً، ص ٤٨ ج ٢

من طرق الهداية لفصل عنها، لو أن الفضيلة هي الخلق المنتشر بينهم، والغالب على أسرهم، ولو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وتوابعهم، فإذا استوتقت منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه، جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا يبالى بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه. أم أحبوه أم أبغضوه.^١

يعتقر المنفلوطي مدح المادحين له ويصغر في نفسه انتقاد المنتقدين عليه. فاتفق الناس جميعاً على رأى يخالف رأيه لا يؤثر على عقيدته شيئاً ولا على رأيه. ويقول المنفلوطي عن الخواص، وهم الذين يملكون الرأى عن آراء المنفلوطي حسبما يقول: "بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بى من خير أو شر؛ لأنى راض عن فطرتى وسجيتى فى اللغة التى أكتب بها، فلا أحب أن يكدرها على مكدر، وعن آرائى ومذاهبى التى أودعها رسائلى فلا أحب أن يشكلنى فيها شكك". ويقول أيضاً: "أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلا ما أسمع صداه من جوانب نفسى فربما خالفت الناس فى أشياء يعلمون منها غير ما أعلم ومعدرتى إليهم فى ذلك أن الحق أدنى بالمجاملة منهم، وأن فى رأسى عقلاً أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سيقه للعقول، وريشة فى سحاب الأغراض والأهواء".^٣

لا يبغض المنفلوطي شيئاً أكثر من بغضه للكذب، ولا يحب شيئاً أكثر من حبه للصدق. فيبغض حتى المبالغة فى البشاشة والإغراق فى الحفاوة. ويحب حتى العقاب المر والضرب المؤلم مادام المتكلم صادقاً ومخلصاً فيما يقول ويذهب. فيقول: "فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب، ولا آخذ نفسى به

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٥٤، ج ٢.

٢- أيضاً، ص ٣٧، ج ١.

٣- أيضاً، ص ١٨٨، ج ١.

ما وجدت منه بدءاً، فأبغضت الكاذبين بعض الأرض للدم. فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مسعراً، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسينين: إما أن يكونوا صادقين وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون^١!

المنفلوطي طاهر القلب أبيض السريرة. فما بالي بالغدر الذي لاقاه من أصدقائه وعشرته الذين أحسن إليهم. يقول مشيراً إلى هذا الأمر: "ولكني لم أرض نفسي أن أنزل في الغرابة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل إليها الغرالكريم. فلم أثار نفسي ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم، ورأى بعضهم في بعض".^٢

كان يحيا المنفلوطي حياة شعرية أحياناً ويجد السعادة في هذه الحياة، يقول في مقدمته

للنظرات عن مطاوعة الأدب وما يجد فيها من اللذة والغبطة الخياليتين:

تمكنت أجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به النائمون من رغد في العيش ورضا حتى طمنت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر وأنه لما علم أنه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجذودين من مال أرجاء أعيش في ظله، وأنعم بثمرته، زخرف لي هذا الجمال الخيالي البهي من الريبة والإثم، وزوده لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والناعم ما لم يضع لغيري، رحة بي وراعلاً على أن أهلك أو يهلك لي بين الأيأس القاتل، والرجاء الكاذب، وهكذا لا أزال مخلقاً في هذا الجوابديع من الخيال أضحك مرة وأكسب أخرى، وأتغنى حيناً وأبكي أحياناً حتى يروني الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إلى نفسي مستعيد^٣.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٤.

٢- أيضاً، ص ٤٣، ٤٤.

٣- أيضاً، ص ٨٧، ٨٨.

ويقول: "لولا الحياة الشعرية التي أحيانا في هذه الكلمات التي أكتبها، لأحببت زهداً في هذه الحياة الحسية أن تطلع الشمس من مغربها، إذ أنا بانقضاء العالم وفناءه، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال إلى حال أن أنتقل ولواء إلى رحمة الله". ويقول:

أعجب ما أعجب له من أمر نفسي أني أحب الجمال خيلاً، أكثر مما أحبه حقيقة، فيعجبني وصف الروض أكثر مما يعجبني مرآه، ولا أظرب لمنظر الفتيات الجميلات، طرب لمنظر القضاة الغزليات، وأحب أن أقرأ وصف المدن الجميلة، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهرتها ويطاوحها وأنهارها وجدولها، وسياورتها وتمائيلها، وأذيتها ومجامعها، ولا يهمني أن أراها، كأنني أريد أن أستديم لنفسى تلك اللذة الخيالية وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها.

ويقول: "إذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المتشعر عالم الحقيقة والألم".^٣

ليست بين المنفلوطي وبين جريدة من الجرائد علاقة خاصة. حتى لم يكن هناك نوع من هذه العلاقة بينه وبين الجرائد التي كان يكتب فيها رسائله. فلم يكن بينهما أكثر مما يكون بين أي كاتب يكتب رسائله مطلق الحرية في أية صحيفة يتوصل بانتشارها إلى نشر خيالاته وأفكاره. فيلاقيها في شيء من سبائها ومذاهبها صادفة واتفاقاً أو يفارقتها طوعاً واختياراً. يقول عن نفسه مشيراً إلى هذا:

وما أعجبت برجل في حياتي أعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتبها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها إلى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يفضي لسيله كأنه ما صنع شيئاً، فلا يسير وراءها سير المتسرع المتجسس ليعلم ما رأى الناس

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٤٤ ج.

٢- أيضاً، ص ١٤٥ ج.

٣- أيضاً، ص ١٨ ج.

فيها، وما حديشهم عنها، ودعل سخطوا عليها، أد رضوا بها؟^١

يحيل المنفلوطي إلى التشاؤم، فهو الذي يقول عن نفسه: "ولا أدري ما الذي كان يعجبني في

سطا لعالى من شعراء الهموم والأحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والنكوبين خاصة"^٢

و أيضاً يقول: "لأنما كنت أدري أن الدمع منظر الرحمة في نفوس الباكين؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع

لصبيها، أو كأنما كنت أرى أن الحياة موطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان"^٣ "أو كأنما كنت

أرى أن جمال العالم كله في الشعور وأن الشعور هو ما تفجر من صدوع الأفتدة الكلية فجرى من عيون

الباكين مع مدامعهم وسعد من صدورهم مع زفراتهم"^٤.

ما يتعلق بأدبه:

المنفلوطي أحد من أفراد قلائد في عصره الذين قدروا على التعبير عما في نفوسهم كما هو

في الحقيقة، لا أقل ولا أكثر. حتى قيل عن كتابته أنها صور حقيقية للأخلاق والصفات التي يتحلى بها.

وكان يفضل ويستحسن هذا النوع من الأدب. فيقول: "وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتب

سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنايب والحاصل - أو صنفهم لحالات نفسه أو أشر مشاهد الكون فيها

وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كما ما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً أو يضعه في

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٤٩

٢- أيضاً، ص ١٣

٣- أيضاً، ص ١٧

٤- أيضاً، ص ١٨١٧

أيد يهم وضعاً" ويقول: "لذلك كان أغزل الغزل عندى غزل العاشقين، وأفضل الرثاء رثاء الشاكين، وأنبل المدح مدح الشاكين، وأشرف العظات عظات المخلصين، وأجمل البلاء بلاء المنكوبين وأحسن الهجاء هجاء الصادقين، وأبرز الوصف وصف الرأئين المشاهدين".^٢ وأيضاً:

وكان لذلك الأدب الذى توليت به نفسى فيما معنى أثر باق عندى حتى اليوم فى أنى لا
أحسن أن أكتب كلمة يفنى بهاء إلى غيرى أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسى. أو ألكى على من لا يحزننى
فراقه. أو أؤدب من لا يفجئنى موته أو استنكر ما استحسن، أو أستحسن ما استنكر، كما لا
أستطيع أن أسرى لشهد من تلك المشاهد التى تهيج فى نفسى حزناً شديداً أو طرباً كثيراً، فأملك
نفسى عن محاولة الإفضاء بما تركه عندى من خير أو شر، وما أعلم أنى كتبت كلمة فى شأن من
الشؤون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها فى قلبى.^٣
و مما قال: "لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمد قوته من القلب".^٤ و

أما البيان فهو تصوير المعنى القائم فى النفس تصويراً صادقاً يمثله فى ذهن السامع كأنه يراه ويلسه
لا يزيد على ذلك شيئاً، فإن عجز الشاعر أو الكاتب - مهما كبر عقله وغزير علمه واحتفل ذهنه - عن
أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو وإن شئت أعلم العلماء وأفضل الفضلاء أو أدكى الأذكياء
ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.^٥

سيزة المنفلوطى الخاصة التى تميزه عن جميع معاصريه فى الأدب العربى هى قدرته على تصوير

١- المنفلوطى، النظرات، ص ١٣٣.

٢- أيضاً، ص ١٣٣.

٣- أيضاً، ص ١٣٣.

٤- أيضاً، ص ١٨٩.

٥- أيضاً، ص ٣٣.

النفس الحزينة والقلوب المتألّمة، وبيانه وشرحه لهذه الحالة النفسية يسيل الدموع ويذيب القلوب، طبع المنفلوطي حساساً يتأثر من الظروف المحيطة به الحسنة والسيئة، ثم يعبر عن ذلك في كتابته ليشأثر الذين يقرأونه بألامه وأحزانه. "أدكأنا كنت أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبيهاً قريباً وسبباً متصلاً؛ فأنت بهم وطربت بنواهم طرب المحب بنوع الحائم وبلاء النائم؛ أدكأنا كنت في حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أفرج بها مما أنا فيه؛ فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مداسهم شفاءً لنفسي وسكوناً لوعتي"

ومما يقول في هذا أيضاً:

و كنت أنساناً بنسألم يترك الدهر سهماً من سهامه المريضة لم يرمني به، ولا جوعة من كأس مصائبه وزاياه لم يجرعني إياها، فقد ذقت ذلك أسيانا، والجوع أياماً والفقر أحوالاً ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشراً؛ نشعرت بمرواة الحياة في أفواه الساكنين، ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين، فكان من همي أن أبكي كل بائس، وأندب كل منكوب، وأطلب رجمة القوي للضعيف والغنى للفقير، والعزيز للذليل؟

من ميزات المنفلوطي الخاصة تفوق الشاعرية والخيال على العقل في الاتزان الفكري، حتى يصح الحكم بأنه شاعر في كتابته كما هو شاعر في شعره. وأنه لم ينقطع عن الشعر في جميع أدوار حياته. فيقول المنفلوطي عن السائل الذي سأله عن السبب في عدم كتابته في عهده الأول وعدم نظمه في عهده الثاني:

كأنا ظن عافاه الله أننى أكتب اليوم بقلم غير قلم الأسس، أو أهيم في واد غير ذلك الوادى! وهل الشعر إلا إشارة من الدد ينظمها الناظم إن شاء شعراً، وينشرها الكاتب إن شاء

نشراً؟ أدنهمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلبيل والنجائم، وأخرى من أوتار
العيدان والمزاهر، أو عالم من عوالم الخيال، يطير فيه الطائر بقادمتين من عروض
وقافية أو خافيتين من فقر وأسجاع.^١

ويقول: "الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما
يعرض له من شئونه وأطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته" وتبين لنا نظريته عن الشعر
أيضاً من قوله:

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون، ولا لا استطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون
شاعراً؛ لأنه لا يوجد في الناس من يحجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقع عليها من
أخصر طريق.

أيها القوم، ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ولا
تزال كامنة فيه كمن النار في الزند حتى إذا شدا ناضت على أسلات أتلامه كما تفيض الكهول
على أسلاكها، فمن أحس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم أنه شاعر، أو لا فليكلف نفسه
مؤنة التخطيط والتسطير، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة.^٣

دأى المنفلوطي البؤس والشقاء والفساد في المجتمع الإسلامي والمجتمع الإنساني فغيرها ثم
صودها بجملات فصحة بليغة ذلقة، لم تكن كتابته بغرض الظفر بعجائب الناس بأسلوبه الرائع، بل كان
القصد منها أن تنشئ في أنفسهم شاعر الصلاح والسداد والصواب، فتأثرت قلوب الناس بها واختاروا
حياة طيبة لهم. فمما كتب المنفلوطي في مقدمته: "أني كنت أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم"

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٨٥ ج ٢

٢- أيضاً، ص ١٨٥ ج ٢

٣- أيضاً، ص ١٨٥ ج ٢

ولاً سمع منهم: أنت أحسنت بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت^١. وبإضافة إلى هذا كان يقصد
 أنا ينبه الناس عن هذه الشرور الكامنة والمفاسد حتى يتواقوا منها فيقول: "فكان من همي أن أدل على
 شرور الأشرار الكامنة في نفوسهم وأن أكتشف الستار عن دخال قلوبهم حتى يترأوا ويتكاشفوا"
 فيتواقوا ويتحاجزوا فلا يهنا خادع مجدعه ولا يبيكي مخدوع على نكته ولا يتخذ بعضهم بعضاً حملاً يركبونها إلى
 أغراضهم ومطامعهم^٢، لكنه لم يقصد محو الفساد من المجتمع الإنساني، لأنه اعتبره محالاً. فهو يقول: "لو كان بي
 أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الإنساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يداي ولا جردت قلماً" لأنني
 أعلم أن طلب المحال عشرة من عشرات النفوس، وضلة من ضلالات العقول^٣.

دراسة النظرات

ما تشتمل عليه النظرات:

نستطيع تقسيم المواد التي تحتويها النظرات إلى قصص ومقالات.

القصص في النظرات.

مع عناية المنفلوطي بالقصة وضعاً وترجمة لم يكن من البارعين في فن القصة. وهذا ناتج عنده

١- المنفلوطي، النظرات، ط ١، ج ١.

٢- أيضاً، ص ١٤٣.

٣- أيضاً، ص ٧١.

عن ضعف الثقافة ثم عن ضعف العناصر القصصية كسعة الخيال ودقة النظر في مراقبة الأشياء وحسن تصويرها وتحليل العواطف والأهواء وبث الحياة والحركة في الأشخاص وصدق اللون المحلي وبراعة المفاجآت والانتقالات وقوة المجازية التي تغمر القارئ في تسلسلها من بداية القصة إلى نهايتها. ثقافة المنفلوطي محدودة، لا تتجاوز قراءة الصحف والمجلات وبعض الكتب العربية القديمة بالإضافة إلى ثقافته الأزهرية. وخياله ضيق، فلا ينطلق في أفق علوي فسيح. لهذا ما تجاوزت قصته سرد الخبر، ووعته المحافظة على شيء من التفنن في التعابير والتشبيه، وما تجاوزت إعطاء النصائح وإلقاء المواعظ المملة، حسب مقتضى الذهن والنطق.

ولئن قدر على حسن وصف بعض الأشياء المادية وتشبيهها ليعجز عن التنبه لدقائق الأمور وتصويرها. وهو غير قادر على الاتصال بالنفس الإنسانية، والغوص على كنوزها واستجلاء أسرارها ومنح مشاعرها بمشاعر قرائه، وإعطاءها حياة من حياتهم وحركة من حركتهم. وما قال محمود تيمور حتى "إن أشخاص قصته أشباح لأرواح".

من عيوب قصة المنفلوطي أن المفاجآت فيها باردة في الجملة، وخاصة المواقف التي تحتاج إلى تمثيل العواطف والبوار النفسية، فهي مقصورة منحوبة، كأنها جذبت على الرغم منها جذباً. وشعور القارئ عند قراءتها شعور انقباض وخيبة وغيط مثل شعور المرء الذي يقع على غيمة مستهالة، تنفلت من يده. مثال ذلك موقف المرأة المتهمة أمام القاضي الذي سلب عفافها. فقد كانت المرأة في هذه القصة واعطة منطقية أكثر من عاطفية ثائرة، فنرى الكاتب يشق عليه تصوير نفسياتها:

جاء يؤم الفصل في أمرها فسيقت إلى المحكمة وفي يدها مئتاها وقد بلغت السابعة من عمرها؛ فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة فواقفت

بين يديه، ووقع بصرها عليه، حتى شذمت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدمشة ما كاد
يذهب برسدها، ذلك أنها عرفت أنه ذلك الفتى الذى كان سبب شقاؤها وعلة
بلدتها، فنظرت إليه نظرة شذراء، ثم صرخت فى وجهه صرخة دوى بها المكان دويًا وقالت:
رويدك يا مولاي القاضى، ليس لك أن تكون قاضياً فى قضيتى إني لانا ساقا
ومكلا ناخائن، والخائن لا يقضى على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضياً بين اللصوص.
فحبب القاضى والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه المرأة العجيبة، وهم
أن يدعوا الشرطى لإخراجها، فحسرت فتاعها عن وجهها، ونظرت إليها نظرة ألم فيها بكل شيء
فشعر بالردة تتمشى فى أعضائه. وسكن فى كرسية سكوت المحقر فى سرير الموت، وعادت
الفتاة إلى رآتمام حديثها فقالت:

أنا سارقة المال، وأنت سارق العرض، والعرض أثنى من المال فأنت أكبر
مضى جنابة، وأعظم جرماً.

إن الرجل الذى سرقت ماله يستطيع أن يعزى نفسه عنه باسترداده
أد الاعتياض منه، أما الفتاة التى سرقت عرضها فلا عزاء لها؛ لأن العرض الذاهب لا يعود.

يقول حنا الفاخورى: "لم تتوفر للمنفلوطى فى ثقافته المحدودة العناصر التى تجعله يأتى بأدب قصصى حق، فكان
فى قصصه خالياً من التحليل والمتعة، غير مروض على أساليب المفاجأة والحبك والتشويق. فرب موقف
حافل بالنتائج العاطفية ينتهى إليه المنفلوطى فيؤجزه بعبارة باردة مقتضبة".^{٩٧}

ويبدو عليه فى كثير من انتقالاته التطفل والتعلل، لأنه لم يمهّد له تمهيداً طبيعياً، حتى يتجنب

من التكلف.

لا يستولى المنفلوطى على شاعر القارئ ولا يستهو به، فلا توجد عنده الجاذبية التى يرفع بها

١- المنفلوطى، انظرات، ص ٩٧، ٩٨ ج.

٢- الفاخورى، تاريخ الأدب العربى، ص ١٠٨.

الكتاب البارع إلى أفق سحري، بل يسير بالقارئ سيراً مألوفاً في منبسط من الأرض فيسليه مرة ويضجره أخرى. ولا يعلق بنفس القارئ شئ من أحداث أشخاص قصة المنفلوطي ومن أشخاصها، لم يكتب النجاح لقصص المنفلوطي، وهي في مجموعها ضئيلة الأثر، ساذجة السألف. تشبه أخبار العشاق عند العرب: حب بيأس مشهقة، فانتفاضة، فوفاة.

الناحية التي يجيد فيها المنفلوطي في قصصه أحياناً هي سرد الأخبار القصيرة، ووصف الشقاء وصفاً مادياً، والعامل الذي يساعده في هذا هو اختباره الشخصي ورقة قلبه.

فسدت القصص التي ترجمها المنفلوطي وخسرت كثيراً من فنها وسموها وجمالها في الأصل بترجمته، لأنها كانت تصل إلى المنفلوطي على ذمة الناقل، فيتصرف فيها ويلخصها حسب مشيئته. لكن قصصه المترجمة أقوى تأثيراً في النفوس من قصصه الموضوعية. والقصص التي نقلها عن الفرنسية أحدثت في أسلوبه ألواناً جديدة ولعبت دوراً هاماً في توجيه رآئته وتليينه. ولا نجد في النظرات إلا قصتين من قصصه المترجمة وهما "الانتقام" و"في أكواخ الفقراء". أما قصصه الموضوعية فهي ناصلة اللون المحلي، لا يجد فيها القارئ عادات مصر من الأمصار ولا زى من أزيائه ولا طبيعة إقليمية.

كان البكاء قد أصبح خاصة من خواص الأدب الحديث، ترسم فيها الكتاب والشعراء مذهب الطبيعيين من أدباء الفرجة، ورأوه يلائم روح الشوق في حرمانه الحسية، وفي انحلال أخلاقه، وانتشار الخلاعة والفساد في أمصاره وفي مكابדתه الأذى والضميم. والمنفلوطي لم يخرج عن طريقة معاصريه في البكاء، بل أقترط فيه وباع في تشاؤمه في القصص. فيميل في جميع قصصه في النظرات إلى الحزن والبكاء، إلا "البعث". لكن جميع هذه القصص لا تنتهي على اليأس والحرمان بل لبعض منها نهايات سعيدة مثل "الزوجتان" و"التوبة". أقدم هنا نهاية قصته "الزوجتان":

رائك لابد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأنك تلك

الفتاة البائسة التي خانها زوجها "فلان" وغدر بها وهجرها إلى أخرى غير ما بعد ما جردها

مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إلى زوجها كانت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضايق بأمرها ذرعا فطلقتها وكانت أفكر في ذلك التاريخ لا تعلم في الزواج من زوج صالحة أجده السعادة في العيش بجانبها وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم عنصراً ولا أذكرى قلباً منها، فترجتها فاستعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانية العذبة من شقوتها وبلائها وأبشرك أن الله قد انتقم بهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً فقد سد ثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعلى اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر، والشقاء الأكبر وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذاً عظيماً فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شئونها وأطوارها، والرجل المصري شوقي بفطوته كائناً من كان، أما غربيته فهي متكلفة متعملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه، فهو يقاسى من تلك المرأة الخرقاء أضعاف مما كانت تقاسيه منه أشرف النساء.

من قصص النظرات الأخرى "الرياء". قصة رجل كان فقيراً لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيم صلبه ويمسك حويله ويسترسو آتته. زوجته أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دماستها؛ وسوء خلقها؛ وجفاء طبعها. كبرت نفس هذا الرجل عن مخالفة أبيه وعن مجافاة زوجته واطراحها والانقباض عنها. فترجها وفي نفسه من المضض والألم ما يلهب الجوانح. ويذيب لمائف القلوب. لقد تزوج هذا الرجل أخت صديقه في الريف وكان يزورها في كل شهر مرة أو مرتين. ثم ماتت هذه الزوجة بعد عدة سنين وتركت له فتاة كانت هي عزاءه الوحيد عن كل مافات من نعيم الحياة. وعند ما نعت إليه هذه الفتاة سافروا إلى الريف وزارا قبرها ومات على هذا القبر. وكان كل ما ينعم به من لذائذ الحياة، أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين إلى هذا الصديق في الريف، فيقضى عنده يومين أو ثلاثة. وبعد عودته لا يلبث أن يعود إلى مجوده الأول، لا يحزن فيبكي، ولا يفرح فيبتسم.

وهناك قصص على ذات الصديق قصته وكشف لي عن خبيثة أمره فقد : إنه قضى زمناً طويلاً يشكو إلى آلام نفسه التي يعالجها من سوء عشرة زوجه وخشونة طبعها، وجفاء خلقها، ثم اقترح على يوم من الأيام أن أوجه من أختي ففعلت رحمة به وداشفاقاً عليه، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة أو مرتين، وظل على ذلك عدة سنين، حتى وعكست تلك المسكينة وعكته ذهبت بها إلى ربها، وتركته فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاءه الوحيد عن كل مآلاته من نعيم الحياة ومنازعتها وكان يختلف إليها كما كان يختلف إلى أمها، وشغف بها شغفاً بلغ به حد الجنون وكان كثيراً ما يقول لي راني أشعر أن حياتنا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة، وأنا إما أن نعيش معاً، أو نموت معاً، وكأنه أنهم بما سيكون : فقضى الله أن تمرض الفتاة مرضاً شديداً لم تمهلها أكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأبها ولما تسلى الخامسة من عمرها، فنعيتها إليه بكتاب أرسلته إليه بالأسس، فجاء وجئت معه، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون.

استوحى النفلوطي موضوعات قصته من وقائع الحياة المتأللة ومعتك العواطف المضطربة. ومن الأدب الفرنسي. فيكتب عن ظلم الرجل على المرأة كما نلاحظ في "الشهيدتان"، و"الزوجتان". ففي "الشهيدتان" زوج رجل ابنته من رجل مزواج مطلق، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عاماً واحداً. فقد ترك هذه الزوجة بعد مدة في المنزل وحيدة مع طفلتها الصغيرة وخطب وتزوج من فتاة أخرى. ظلت الفتاة تسأله القوت لتستعين به على تربية طفلته أو التسريح، فأبى الأمرين. وانطوت الفتاة إلى العمل حتى بلغ بها الحال إلى أن مرضت وأصبحت لا تملك درهماً تشتري به قارورة الدواء. فكتب إلى ذلك الرجل تصف له حالتها وتسأله أن يدها ويدها ابنته بشئ من القوت. ثم لبثت تنتظر رجوع الكتاب. وقد أجلس طفلتها بين يديها ذات يوم، إذ هم عليها ذلك الرجل الطالم الجبار فاخطف ابنتها من بين يديها

وهي لا تملك دَفْعاً عنها. وبعد فراق الفتاة أمها:

ما زالت الفتاة مذفارتت أسها بكي عليها بكاءً مستمراً، وتهتف باسمها في يقظتها ومناسها حتى
ستقطت مريضة لا ينفعها طب، ولا ينفع فيها دواء، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها إلى هذا الحد
جئت بها إلى أمها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاهاً من دائها، قلت: ذلك موكول إلى القضاء، ولا
يعلم الغيب إلا الله، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها، فاحتلمتها برفق حتى وضعتها بين
ذراعي أمها فها هو ذا أن هتفت الفتاة بأسمها، والأم بفاتتها، حتى فاضت نفسها معها كالنفا
كانتا من الردى على ميعاد!

ويتحدث عن ظلم المرأة على الرجل وعدم وفاءها معه وخداعها كما نرى في "عذر المرأة"، وإلى

الدير" و"الرباء". فيذكر في "إلى الدير" ظلم الزوجة على زوجها:

وليتها كانت تفعل أمرى وتركني وشأني فأستطيع أن أتناها وأعد نفسي من العذاب تحيلاً
وتقديراً؛ بل كانت تقيم على من نفسها ومن هذا الجعفل اللب المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس
كجواسيس الإنجليز، يرقبون مواقع نظري ومواقف قدي، تعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي، فتغار
على من الكواكب إذا رأته في أنظوريها... .. وأكثر ما كان يغطيني منها: أنها كانت تفتح على باب
الحساب على الفتات والخطوات إلى في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسى أو بكتابى؛ فما أكاد انتفع
بواحد منهما، فإن سكنت أغضبها سكوتي، وإن نطقت أغضبها حديثي... فلا أقرأ ولا أكتب،
ولا أعطى نفسى حقاً من حقوقها ولا أبكر لزاولة أعمالى، ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا
تتمثل إلا على تعد الأزياء واختيار النساء، فإن وابتدعت رغبته فذاك، وإلا استحال في
لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلة لا تسمعنيها ولا تترك
وسيلة من وسائل التغيص لا تهجم بها على، فكنت - بين ألم رضاها وعذاب غضبها - في
شقاء حبيب إلى الموت وبغض إلى وجه الحياة.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٩٢،

٢- أيضاً، ص ٧٤،

ويتناول أيضاً موضوع سقوط الفتى والفتيات وعوائب ذلك والمشاكل الناتجة عنه. نستطيع أن نرى هذا في قصصه "اللقطة"، "التوبة"، "غرفة الأحزان"، ففي "غرفة الأحزان" يقص قصة فتى سلب قلب وشرف فتاة أحبها في يوم واحد، وعدّها بالزواج ثم هجر المنزل الذي كانت تزوره فيه وقطع حبل ودّما حين علم أن جنيماً يضطرب في أحشائها. فنرى في آخر القصة المصير الذي صار إليه كل منهما وكيف تركا وليدتهما وحيدة :

قال: والى ساقرات هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتشّى في جميع أعضائي، وخيل إلى أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزماً. فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير حثة هامدة للحراث بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تنكي بكاء، مرا فصعقت بهول ما رأيت، وتخلت في جرائمي في غشيتي كأعمامى وحوش صارية، وأساور ملتفة، هذا ينشب أطافره، وذات يحد أدنيابه، فما أفقت حتى علّدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها "غرفة الأحزان" حتى أعمش فيها عيشها، وأموت موتها.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه وكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتي يا صديقي،

كذلك نرى أيضاً في قصص النظرات مشكلة جبر الوالد الزواج على ولده أو بنته، وهذا في "إلى الدير"، "الثناء"، "الشهيدتان".

ويتكلم المنفلوطي عن الوقوع في الحب ثم انتحار الفتى عند علمه بموت الفتاة التي وقع في حبها. وهذا نراه في قصته "على سرير الموت".

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي، وأشعة أمانتي، ونبوع سعادتي وهذاتي.

سأنت الفتاة التي كانت قبل ، الدنيا جمالا وبهاء ، فمات بموتها كل شيء في هذا

الوجود .

.....

أيها الدهر الغادر : إن علبتني عليها فإني لن تستطيع أن تغلبني عن نفسي ،

لأنني أخرج من الدنيا من تشاء . ولكن ليس لك أن ترد إليهما من تخرج منها .^١

ويُرى المنفلوطي سوء عاقبة رجل تعود قضاء الليالي الطوال خارج المنزل بين شهوة يطلبها

وكأس يشربها ، وملاعب يجبر فيها أذيا له ، ومراقص يهتك فيها أمواله ، تاركاً زوجته تشكو الوحشة وتبكي

الوحدة ولم يحسن تربية ولده فتركه يخلف إلى الهانة ويرتوي ويقضي أوقاتة بين خلطاء السوء وعشراء

الشر و دله و رفقه وأرغى له العنان . وظن ولده غنيا عن الحاجة إلى العلم . فهذا ما يراه في آخر وقت من

أوقات حياته :

وما زال في نسيته تلك حق صحاحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا النور المحزن المؤلم .

رأى ولده لاهياً بجأ دثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته تضاحك تربا

من أترابها وتخبرها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله ؛ ورأى صديقه أو ولي عهد يأمري

القصر وينهى ؛ ويتصرف تصرف السيد المطاع ؛ ورأى نفسه يعالج سكوت الموت ؛ وبعد

عدته للانتقال من القصر إلى القبر ؛ وهنا سمع كأنها تها تها تهتف به من السماء ويقول :

أيها الرجل ؛ لو وفيت لزوجك لو فت لك ؛ ولو أكذبت ولدك لعناه أسرك ؛ ولو أحسنت

اختيار صديقك ما خانك ؛ ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك ؛ ما أغضض عينيه ؛ وهو يقول

” فلنك مشيئة الله “ .

ويعيدتنا عن الظلم الذي يوجد في المجتمع المصري عامة في ” حبايا الزوايا “ وعن الأوصياء وما يفعلونه

١- المنفلوطي ، النظرات ، ص ٢٥٥ ، ٢٠٦ ج ١

٢- أيضا ، ص ٩٧ ج ١

مع درثاء الأموات وأموالهم، وهذا موضوع القصة "الأوصياء". وهناك قصة في النظرات سماها "البعث" يقصد منها تحييل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه.

توجد قصتان من قصص المنفلوطي المترجمة من الفرنسية في النظرات هما "في أكوخ الفقراء" و "الانتقام". في "في أكوخ الفقراء" يصور لنا الحياة في أكوخ الفقراء في ظلمة الليل ويذكر مشاعر الرحمة والمواساة والعطف والتعاون والمحبة والإحسان التي توجد بينهم، ويتمنى لسكان القصور أن تغنى قلوبهم بهذه الشاعر. يقول "فيليب" في هذه القصة، عند ما علم بموت جارتة "جانت" "نعم، إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات، ورجا مترو على وعلى أولادى أيام لم نجد فيها ما نأتم به، لكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هاتين اليتيمتين الصغيرتين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب؟" وفي "الانتقام" الفتاة المظلومة إيلين عذرت على الانتقام من العدو وعند بلوغها ما عذرت عليه شعرت أن "الانتقام لذيد جداً، لكن لذته يعقبها الندم والأسف، تأتي على أثرها الحسرات والآلام، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه" فما رضت وما اطأنت بما فعلت و "حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها" ^٣ فالتحقت بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٣٩، ج ٣

٢- أيضاً، ص ١١٠، ج ٣

٣- أيضاً، ص ١١١، ج ٣

المقالات في النظرات .

كتب المنفلوطي مقالات في النظرات واضعاً و مترجماً . مقالاته المترجمة هي " تأبين فولتير " و " سحر البيان " و " الدعاء " و " لايفون الصغيرة " و " الموتى " و تحتل المقالات الجزء الأكبر من نظراته . يمتاز المنفلوطي بأسلوبه الكتابي المصنّف ، و الشهرة التي نالها في حياته هي بسبب إنشائه الجميل و تعبيره السهل . كتب المنفلوطي نوعاً من المقالات ، مزجها مع القصة و هذه الخاصة تضيف مقالاته متعة و جمالاً و جاذبية للقارئ و رغبة في القراءة . من هذه المقالات " زيد و عمرو " و " سياحة في كتاب " و " قتيلة الجوع " و " يوم العيد " و " المرقص " و " الشجوحة المتردة " و " عجائز بوشنج " و " الأجواء " و " الدين الصغير " و " الغنى و الفقر " و " البعوض و الإنسان " و " الشعرة البيضاء " .

تطرق إلى موضوعات عديدة في مقالات النظرات ، وهي :

الأدب : مباحثه الأدبية قليلة العمق على الإجمال ، تفتقر إلى ثقافة أدبية صحيحة و دقة النظر و براعة في التحليل ، لكنها تنصف بقوة و إيلا م في النقد و التجريح ، و صدق في الشعور و إخلاص في العقيدة . يتكلم المنفلوطي في هذه المباحث عن البيان و الأدب و الشعور و اللفظ و المعنى و رباعيات الخليل و غيرها . يقول في " دمعة على الأدب " " أنا لا أعجب لشئ و أعجبي لهؤلاء الأدباء : يحزنون فلا يبكون ، و يطيرون فلا يضحكون ، و يألمون بلا أنين ، و يعشقون بغير حنين " . و يتجلى شعوره الأدبي في هذه الكلمات أيضاً :

لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال ، و المعنى بالقبح أو نعكس ذلك ، فليعلم الناس شئ المتأدب أنه ليس اللفظ كيان مستقل ، و لا حيز خاص ، فجماله جمال معناه ، و قبحه قبحه ، و أن القطع الأدبية

الشعرية أو الشعرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو داهيون.^١

و

ذهب اناس في معنى البيان مذاهب متشعبة، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا الفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشبه وجوهها ولا تشعب مسائلها؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى انقائم في النفس، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوز ولا يقصر عنه، فإن علفت به آفة من تنك الآفتين فهي العي والحصر.

جهل ابيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فأغصوا بها صدور كتابتهم.^٢

الرباء: نجد في النظرات عدة مقالات رئيسية. مثل الرباء على طفله وعلى جرجي زيدان وعلى الشيخ على يوسف وعلى مصطفى كمال وغيرهم ويرثي شبابه. وهنا مقطعات من ربائهم على طفله بعنوان «الدين الصغير»:

بكي الباكون والباكيات عليك ماشاءوا، وتفجعوا ما تفجعوا حتى إذا استغذوا
ما رشئو ونهم، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها،
ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عيينين قريحيتين، عيين أبيض الشاكل المسكين،
وعيين أخرى أنت تعلمها،^٣

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١١ ج ٣

٢- أيضاً، ص ٣٤ ج ٢

٣- أيضاً، ص ٤١ ج ١

« دُفِنْتُ اليوم يا بنى ودُفِنْتُ أهلك من قبلك، ودُفِنْتُ من قبلكم أخوكم فأنا فى كل يوم أَسْتَقْبِلُ زائراً جديداً، وأودع ضيفاً راحداً فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب، واحتل فوق ما تحتل من فواح الخطوب^١ »
 و« لماذا ذهبتم يا بنى بعد ما جئتم؟ ولماذا اجئتم، إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟^٢ » ويقول فى رثاء شبابه :
 « أبكيك يا عهد الشباب . لا لأنى تمتعت فيك براح أو غزل، ولا لأنى ركبت مطيئك إلى لهو أو لعب، ولا لأنى ذقت فيك العيش بارد الهوان كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى^٣ » و« وداعاً يا عهد الشباب، فقد ودعت برداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدا كل شىء، وأقضى كل شىء! »^٤

الإسلاميات : هذه المباحث متأثرة بالدين تأثراً قوياً واصطبغت بالعاطفة الإسلامية صبغة تتأجج عليها الغيرة اللطيفة بالتعصب للإسلام والمسلمين . وقف بها المنفلوطى مواقف مختلفة . نستطيع اعتبار « رسالة الغفران » و« دمعته على الإسلام » و« الإسلام والمسيحية » و« المؤتمر الإسلامى » و« عبرة الهجرة » و« يوم الحساب » من ضمن هذه المباحث .

إن حياة النبى صلى الله عليه وسلم أعظم مثال يجب أن يحتذى به المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتقى بأكرم الفضائل وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق فى القول والإخلاص فى العمل واشتبات على الرأى وسيلة إلى

١- المنفلوطى، النظرات، ص ٤٩ ج ١

٢- أيضاً، ص ٤٩ ج ١

٣- أيضاً، ص ٤٣٣ ج ٣

٤- أيضاً، ص ٤٣٧ ج ٣

النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل.^١

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد؛ وإن طلع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده، مادام المسلمون يقفون بين يدي الجيلا في كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني: "أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات؟"

ويقول المنفلوطي في الرد على ما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام: "أيها الفيلسوف التاريخي: إن كان لابد من الاستدلال بالأثر على المؤثر، فالمدنية الغربية اليوم أثرت من آثار الإسلام بالأمس، والاعطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى^٢، و"غير أنني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور، وما أصاب جامعهم من الوهن والاعلال، ولكن ليس السبب في ذلك الإسلام كما تتوهم، بل المسيحية التي سرت عداها، لا يهيم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام،^٣ ويقول: "أيها الفيلسوف التاريخي، إنك لابد تعلم ذلك حق العلم، لأنه أبل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها، ما حاربها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك، حتى أنكرت عليه فضله في نفسه!"^٤

الاجتماعيات: كان المنفلوطي كاتباً اجتماعياً وأحسن إحساساً مرهفاً برسالة الاجتماعية.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١١٧ج.

٢- أيضاً، ص ١١٧ج.

٣- أيضاً، ص ١٦٦ج.

٤- أيضاً، ص ١٧١ج.

٥- أيضاً، ص ١٦٩ج.

قد ملك قلباً رقيقاً ، وخبرة حياته المتألمة ، واطلع على الشقاء المنتشر في طبقات الأمة . كل هذه الأمور بعثته على الشفقة والالتفات بالمجتمع للتدبير بشروده والحث على محاولة إصلاحه . فقام برسائله الاجتماعية بإخلاص . نرى على اجتماعياته أثر طبعه المتشائم ، فسيطرت عليها سمعة التشاؤم . لم ير المنفلوطي في المجتمع إلا الناحية الكئيبة الأليمة وآسى الحياة الأخلاقية المفجعة . فوصف وصفاً أليماً ما رآه من مفاسد العصور وشروط المجتمع .

تلزم للكاتب الاجتماعي ثقافة واسعة ودراية كبيرة بنفسية الشعب . وثقافة المنفلوطي ما تعدت مطالعة الأسفار الأدبية إلا إلى قراءة بعض الصحف والمجلات . استمد المنفلوطي مباحثه وآراءه من أخبار الصحف اليومية وتعليقاتها ومن أحاديث الناس وتعليقاتهم . فردد أتواهم في كثير من موضوعاته . اتخذ الحياة الاجتماعية لبيئته ينبوعاً لأفكاره في هذا الموضوع وتأثيراً استأذ به محمد عبده تحول فيها إلى مصلح اجتماعي ، فردد آراء المصلحين من حوله . كان سطحي التفكير ، انقاد إلى الخبرة الشخصية دون تهذيبها بالطرق العلمية . لكن بنية المنفلوطي كانت صادقة وخالصة لمحاولة الإصلاح القومي والديني ، بكل ما ناله من صفات النفس والتعلم . اجتماعياته في الغالب تركز على البيئة المصرية والرجل المسلم والمرأة المسلمة ، لأن غايته الخاصة التي يرمى إليها هي محاولة إصلاح المجتمع المصري الإسلامي .

ونستطيع أن نقسم الموضوعات في مقالاته الاجتماعية إلى نوعين : نوع من الموضوعات يتعلق بذكر الشرور والمفاسد والبرذائل والعيوب التي توجد في المجتمع ، ونوع آخر يذكر البائسين والمنكوبين والمظلومين . من أمثلة النوع الأول مقالاته "خداع العاوين" و"أين الفضيلة" و"حوثت الأعراض" و"الملاعب الهزلية" و"من الشيوخ إلى الشباب" و"الآداب العامة" و"أفسدك قومك" وغيرها . يشير إلى فساد المجتمع الذي يجعل المجرم مجرمًا قاتلاً : "هؤلاء شركاؤك في الجريمة" وأقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة .

تسفة بينك وبين شركائك ولكني لا أستطيع أن أنفعل^١. ويقول المنفلوطي عن الفضيلة: "إني لا أنكر وجود الفضيلة ولكني أجهل مكانها. فقد عقد رياء الناس أمام عينيّ سحابة سوداء أظلم بها بصري حتى ما أجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ولا كوكباً طالعاً^٢. ونقرأ عن الملاعب الهزلية:

ولكن نازل نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام أو عشرين لم أحفل به في مبدئه؛ ولم ألق له بالاً؛ وعددت في النوازل الصغيرة المتردة التي لا تلبث غيوسها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنتشع ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باق في مكانه؛ لا يتحول ولا يتحلل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً وأحسبه سيبقى في مستقبله أيامه أضغاف ما بقي في ماضيها وإن لم نشر عليه معشر الكتاب حراً شعوا؛ تهزجر دانه هزاً؛ وتدكه دكاً؛ وتلحق أعاليه بأسافله^٣.

ويقول المنفلوطي في "الآداب العامة":

تحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهرُوا في هذه الأيام واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق الأثقة بهم وبكراسهم وبمنزلة العلم الذي يزاوونه، فأصبحوا متبدلين في شهواتهم مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمان الأعراض ماشاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعيشون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي يخاف مغية ولا يخشى عاراً، وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغفرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يخطفن إلى مدارسهن أو اللواتي انقطعن عنهن منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الجبائل وأنواع

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٠٦.

٢- أيضاً، ص ٥٥.

٣- أيضاً، ص ٣٤.

الأشراط لا مطيأ دهن وإستطاهن في هوة إلا ثم والعاد وهذا أريد أن أتكلّم عنه قليلاً؟
المقالتان "أبو الشقمق" و"قتيلة الجوع" مثالان للنوع الآخر لموضوعات اجتماعياته. يتحدث في "قتيلة الجوع" عن امرأة ماتت جوعاً بين سمع الناس وبصرهم وفي ملقّي غادرهم براصهم. ولم تجد بين الناس من يجيب سؤالها ويمد إليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها. يقول عنها:

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟
لعلها ظنت أن الصخرأين قلبا من الإنسان فذهبت إليه تبثه شكواها، أو أن الوحش
أقرب منه رحمة فجاؤته تستجديه فضلة طعامه، وأحسب لو أن الصخر فهم شكواها
لأشكاها ولو أن الوحش ألم بسريرة نفسها لوثى لها وحنا عليها، لأنني لأعرف مخلوقاً على
وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان.

الدعوة إلى الخير والترغيب في التمسك بالفضائل أو النهي عن الشر والتنفير من الرذائل:
المقالات "الوفاء" و"التمار" و"الكبرياء" و"الإنسانية العامة" و"الكأس الأولى" و"مدينة السعادة"
و"احترام المرأة" و"العظيمة" وغيرها تتكلم عن هذا الموضوع. يقول المنفلوطي للسائل الذي سأله
عن رأيه في تطبيق الزوجة التي عرض لها رمد في عينيها فذهب ببصرها، فأصبحت عمياء والزواج من
غيرها: "أيها الإنسان: لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين وجرم الغادرين؛ ولكن
اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم؛ لتستطيع أن تدخل نفسك عند الله من المثوبة
والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين".^٣ و"فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في

١- المنفلوطي، انظرات، ص ٣٠٣ ج ٣

٢- أيضاً، ص ١٠٤ ج ٣

٣- أيضاً، ص ١٠٤ ج ٣

صفحات القلوب، ما سجل لأحمد بن أبي ذؤاد في صفحات التاريخ، فلا تعلق بزوجك، ولا تنقم منها
 أسراً قد خرج حكمه من يدها، وما أن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظاً من لذائذ العيش، فاعلم أنه
 ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حياته إلا ويشوبها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة البر والإحسان.
 وفي موضع ينفر من القمار:

وإنما أريد أن أقول للذين لم يقدر لهم أن يخطوا خطوة واحدة في هذه الطريق الوعرة حتى
 اليوم: لا تقامروا جداً ولا هزلاً: فإن هزل القمار يحرق إلى جده، ولا تمروا بمعاهد القمار
 تصدا ولا عفوا؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ ولا تصاحبوا القمارين بحال
 من الأحوال؛ فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم، فإن فعلتم خسرت ما لكم وشرقكم
 وغرتكم وكراحتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوض عليكم ما خسرتكم؛
 فارجحوا أنفسكم، إن كنتم راحمين، واتقوا الله، إن كنتم مؤمنين.

ويقول داعياً إلى البقاء على الصدق: "لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الظن به وكن أحرص الناس على
 ولائه وسودته، وإياك أن يجذعك عنه حادع، واصبر قليلاً يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله. وهناك
 تجذب في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو البيتجان نيتجانهم وأرباب الكنوز كنوزهم لما استطاعوا
 إليه سبيلاً".^٣

من قول المنفلوطي في "الرحمة":

أيها الرجل السعيد: كن رحيماً، أشعر قلبك الرحمة، ليكون قلبك الرحمة

بعينها.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٠٤،

٢- أيضاً، ص ١١٤،

٣- أيضاً، ص ١٠٨،

ستقول : على غير سعيد؛ لأن بين حنبى قلبا يلزم به من الهم ما يلزم غيره من
القلوب، أجل، فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع وأكس العارى وعمر المحزون وفرج
كربة المكروب، يكن لك من هذا المجموع ابائس خير غراء يعزيك عن هموك وأحزانك!

بيان الحقائق أو الكليات العامة: "العلماء والجهلاء" و"العام الجديد" و"الرجل والمرأة"

و"الحرية" و"الجمال" و"أدب المناظرة" و"البنخيل" من ضمن المقالات التى نجد فيها هذا الموضوع.
مثلاً يقول المنفلوطى فى مقالته "الجمال":

كما أنه ليس كل مجنون يرحى شفاؤه، ولا كل مريض يرحى إبلاله؛ كذلك
ليس كل من نسد ذوقه يرحى صلاحه؛ فإن رأيت من تؤمل فى إصلاحه خيراً، وتجد فى
نفسه استعداد التقويم ذوقه فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال، وتدأب على تنبيهه إلى
تناسباته ومؤلفاته؛ وإن استطعت أن تعلمه فنان من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير
والموسيقى فافعل، فإنها المقومات للأذواق، والفارسات فى النفوس ملكات الجمال.

ويكشف لنا عن حقيقة السريرة :

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبُذلت الأرض غير الأرض،
والسماوات غير السماوات، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه
الصفحات.

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليقضوا "نيشاناً" فى صدر القائد أو جومرة
فى تاج الملك، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين فى مواقفهم بأشراء الوطنية وحبال الدين،

لما دالت الدول، ولا انتقلت التيجان، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان.

ونجد هذه الحقيقة في "العلماء والجهلاء":

إن في اختفاء الحقائق الكونية وتكورها، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومرايه،
وتفرقه مذاهب وشيعا، وركوب كل فريق رأسه، وهيامه على وجهه، وقوف طلاب الحقيقة
في كل دهر وعصر في مفارق الطرق وردوس المسالك حيارى - ينشدون فلا يجدون ويجدون فلا
يصلون - لدليل على أن الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا سميات
وأن حقائق الأشياء وأسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجبها من دون عباده، ولم
يخصهم بالبلغة تزيد فهم وجداً أكمل وجدواً أبردها وتعللاً قلوبهم شوقاً كلاتذوقوا طعمها.
ويقول عن الأصل مخاطباً الغد: "لا... لا؛ من سرّ في صدرك، وأبقى لتأمل على وجهك، ولا تحدثنا
حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا، حتى لا نتجعنا في أرواحنا ونفوسنا، فإنما نحن أحياء بالآمال وإن
كانت باطلة، وسعداء بالآمال، وإن كانت كاذبة".^٣

وفي النظرات مقالات متعددة تتكلم عن موضوعات مختلفة، وهي:

"سناجاة القمر" و"أهواء أم عزراء" موضوعها فضلاء السوريين الذين هاجروا إلى مصر، وقضوا هناك برعة
من الزمان ثم فارقوها على أثر إعلان الدستور العثماني، و"تأبين فولتير" ترجمة خطبة لفكتور هيجو في باريس
في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨ م. بعد أن مرقن على وفاته، مع بعض تصرف،
و"الصندوق" وفيها يجيب المنفلوطي على سؤال سائل يتعلق بالصندوق الذي يوجد في ضريح السيد ابدوى
توضع فيه النذور، و"إلى قولستوى" المقالة التي كتبها على أثر ما جاء في الأخبار أن "قولستوى" الفيلسوف

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٦٤.

٢- أيضاً، ص ٣٧.

٣- أيضاً، ص ١٤٣.

الروسي المشهور ترك منزله دائماً على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة أو في إحدى العابات، و"العلماء" خلاصة قصيدة لفكتور ميخو، و"سياحة في كتاب" يحول فيها المنفلوطي معنا جولات في كتب أدبية فرنسية و"الزهرة الدابلة" تعزية لأحد الكاتبين إلى المنفلوطي يذكر له مصائبه ويطلب منه العزاء عليها، و"الخطبة الصامتة" موقف سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول، و"الرسائل" فيها كتاب في التقاضي وكتاب مقاطعة وكتاب تهكم وكتاب يأس و"الكلمات" تشمل على كلمات عن الجرائد، وعبد الحميد، والشهرة، وفكاهة، والأقسام والدين والحقيقة، والانتقاد، والحزم، والألم، والغفران، والدعوى، والدين والوطن، والحلم، والأدب، والأخلاق، والاعتدال، والبر، والشقاء، و"الفتاة والبنت" تقرظ لكتاب الفتاة والبنت.

الأفكار الخاصة في النظرات:

١- كان موقف المنفلوطي من المدنية الغربية وجوب الأخذ بحسناتها وفضائلها وترك

سيئاتها ورذائلها. ويذكر موقفه من هذه المدنية في مواضع عديدة في النظرات.

فاستطعت - وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية - أن أجلس ناحية منها. وأن أنظر إليهما من قرب عال، وكنت أعلم أن من أبحر البحر أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائفة تحقار، فيما أخذه كله أو تركه كله؛ فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من هي أن أحمل الناس من أسرها على ما أحمل عليه نفسي، وأن أنعم من مولد العجزة الضعفاء وتها لكهم بها، واستهناهم بها، وسقوطهم بين يدي رذائلها ونمازيها، وإلحادها وزندقها وشحها وتسوتها وشرورها وحرمها وتبذرها وتهتكها.

لكنه يرى أنه ليس باستطاعة المصري إلا الأخذ بنواحيها السيئة والضارة والتأثر بها وليس باستطاعته

أن ينتفع من هذه المدنية :

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدنى إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبرا الأحياء له من بعده إلى يوم يبعثون.
لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن دأبها إلا كان غربال من دقيق الخبز، يمسك خشاه ويفلت لبابه أو الرزق من الخمر، يحتفظ بعقاره^١ ويستهن برحيقه^٢؛

لذلك أصبح يعتقد أن المدنية الغربية فساد من المفاسد التي تصيب المجتمع فهي من الأمور التي ينبغي اجتنابها: "فخير له أن يتجنبها جهده"، وأن يفر منها فرار السليم من الأجر^٣.

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية مبلغا يؤثر عليها مجازاة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها.

أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيان متلازمان، وتوأمين متلاصقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افتوت نشوة الخمر عن مرآتها. فكيف أتمناها لأمة هي أعز على من نفسى التي بين جنبي^٤؟

"إن في المصريين عيوباً جمة، في أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لابد لنا من الدعوة إلى إصلاحها فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية"^٥ "إن الانتحار نزعة فاسدة

١- المنطوق، انظرات، ص ١٤١ ج ١

٢- أيضاً، ص ١٤٠ ج ١

٣- أيضاً، ص ١٤٥ ج ٣

٤- أيضاً، ص ١٤٢ ج ١

وعادة مستهجنة، رتبنا بها المدينة الغربية فيما رتبناه من مساكنها وآلاتها، يقول عن أتر المدينة الغربية في الشرق مقارنا ذلك بأثرها في الغرب:

ذلك مثلنا ومثل آباءنا من قبلنا بين يدي هذه المدينة الجديدة التي هي
سليما على هذا العالم الإنسانى فرأى الغرب تربة طيبة صالحة مستقاهما ما هتزت وربت وأبنت
من كل زوج بهيج، ورأى الشرق تربة صامدة متعجرة قد نجم منها كثير من الأعشاب الضعيفة،
والجذور الفاسدة، فأما ما تحجر منها، فلم تغن عنه السقياشيئا، وأما ما اخضر وترعرع
فقد نما فاسداً كأصله وكان خيرا له لو ذهب ذلك الفيضان به وجذوره.^١

ويقول: "أى إن الغربيين أحسوا، فنهضوا، فجدوا، فأثروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم، ونحن انحفلنا
جميع هذه المقدمات، ووثبنا إلى الغاية وثبا فسقطنا".^٢

٢- موقفه من المرأة موقف الرحمة والعطف والاحترام لها. فهو يقول: "فكان بي منذ
ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس إليها، وأن التمس بها من العذر -
وإن دلت بها قدم - ما لا يلتمسه بها أحد، وأن أنصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا إلى ذلك
حتى يدل لها الله منه".^٣ ويقول أيضاً: "أين تجدون الزوجات الصالحات فى مستقبل حياتكم إن أنتم
أفسدتن الفتيات اليوم!"^٤ و"يجب أن نحترمها لتعود احترام نفسها، ومن احترم نفسه كان أبعد

١- المنطوق، النظرات، ١٤٩، ص ٣

٢- أيضاً، ص ١٥٠ ج ٣

٣- أيضاً، ص ١٥١ ج ١

٤- أيضاً، ص ١٤٩ ج ٣

الناس عن الزلات والسقطات^١ و "يا رحم المرأة اساقطة لاتزين لها خلا لها ولا تشتري نساء عرضها
 عليها تعجز عن أن تجد ساوما يساومها فيه فتعود به سالما إلى كسريتها^٢ و "فيا أقوى القلوب من
 الرجال رفقا بضعف النفوس من النساء، لانكم لاتعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن وعفتن^٣
 أى قلب تفجعون، وأى دم تسفكون^٤ و "ليت الرجال ينفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه
 الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء، بل ليتم ينفقون على
 الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش نيسقطن^٥. وهذه الكلمات توضح لنا شعور
 المنفلوطي نحو المرأة أوضح توضيح: "ويا أيها المحسنون: والله لا أعرف لكم باباً في الإحسان تنفذون
 منه إلى غفوة الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة^٥. وينسب المنفلوطي مسرات الحياة
 إلى المرأة: "وجملة القول إن الحياة مسرات وأحزان، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة، لأنها
 مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسرات، أو تحوّلها
 عن نفوس أصحابها على الأقل، فلأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها^٦. وهو يريد أن تبقى المرأة في
 حجابها: "كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهتر، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأندستهم

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٣٤٣

٢- أيضاً، ص ٧٩

٣- أيضاً، ص ١٥٤

٤- أيضاً، ص ١٩٣

٥- أيضاً، ص ٤٤٤

٦- أيضاً، ص ١٩٩

وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها^١ لكنه يريد لها حريتها في حدود طاعة الله عز وجل: "كذلك لأحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل يملك عليها كل مادة من مواد حياتها، يأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير".^٢

٣- لا يكون جميع الناس في الحقيقة كما يبدو في ظاهريهم وكما يسميهم الناس ويفهمونهم نجد هذه الفكرة في "خداع العناوين" حيث يقول: "لقد كثرت الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول: إن العناوين أدل على نقائصها منها على مفوماتها" وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها^٣ ثم يعطى عدة أمثلة لذلك من حقائق الحياة. ونجد هذه الفكرة في نصيحة الفتاة للقاضي في "التوبة" حيث تقول: "ليس لك أن تكون قاضياً في قضيتي، فكلانا سارق وكلانا خائن، والخائن لا يقضى على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضياً بين اللصوص" و

ناترك كوسيط لغيرك، وقف بجانبى ليحكم القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها، وأنا المسفورة فيها.

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة ثم تأتي بنا إلى هذا المكان فتقف أحدنا في أشرف المواقف، وتقف الآخري أدناها، لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول، أو ذمام غير منقضب.^٤

١- النفوطي، النظرات، ص ٩١ ج ٣

٢- أيضاً، ص ٩١ ج ٣

٣- أيضاً، ص ٦٦ ج ٣

٤- أيضاً، ص ٩٧ ج ٣

٥- أيضاً، ص ٩٨ ج ٣

و"إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوساً ليست بأقل من نفوسنا شراً، ولا أحبث منها مذهباً، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا في العنادين والألقاب والشمائل والأزياء".^١
وفي "الأدب الكاذب":

فأحسن الناس عند الناس أدبا وأكرمهم خلقاً، وأشرفهم مذهباً من يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مذهباً، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يقترف ما شاء الله من الجرائم والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها، وأفضل من هؤلاء جميعاً عندهم أدب تلك الذين برعوا في فن "آداب العالية" أي فن الرياء والنفاق، وتفوقوا في استطاعتهم تلك الصورة الجادة التي تواضع عليها "جماعة الظرفاء" في التحية والسلام.

ويقول: "ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأياً عاماً.... حتى تبدلت الصور وانعكست الحقائق وأصبح الرجل المخلص أخرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً، وأضلهم بهما سبيلاً".^٣ ويعبر عن نفس الفكرة في "الشرف" أيضاً: "لوفهم الناس معنى الشرف لأصبحوا لهم شرفاً" و "فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك" و "لا شرف إلا الشرف الحقيقي، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته وأمواله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه أو خدمة نوع من أنواعه".^٦ بسبب

١- المنلوطي، النفوس، ص ٩٩.

٢- أيضاً، ص ٢٤.

٣- أيضاً، ص ٢٤.

٤- أيضاً، ص ١٥٣.

٥- أيضاً، ص ١٥٥.

٦- أيضاً، ص ١٥٥.

هذا الفساد، في تصور الناس، الذي حدث في هذا العصر يقول المنفلوطي أن الفضيلة لم تبق فضيلة، والآن ليس من المعقول الدعاء إليها. وقد تغيرت المقاييس اليوم.

وأرى أنه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالأسس، وأن أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وأن كثير من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة قد زالت، ويحتويها الناس، ويترمون بها، ويستثقلونها منها. قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصلحة حالة واعدة متقدة في نظام المجتمع البشري، وأسس ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونها، ملائمة للناس منها.

وإن الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص، في هذا العصر، إنما هو حباله ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثروا بها من دونهم.

٤- الناس يبغضون بعضهم بعضاً ويختلفون لالسبب يدعوا إلى ذلك إلا أنهم يختلفون عن بعضهم فيما بينهم في أمور الأمور أو من ناحية من النواحي فيقول في "العام الجديد":

وأن سحب البغضاء القائمة لاتزال مخيمة على المجتمع الإنساني من أدناه إلى أعلاه شعوباً وقبائل وأجناساً وأنواعاً ومذاهب وأدياناً ومنازل وأوطاناً، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه؛ فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه في دينه؛ فإن وافقه فيه أبغضه لأنه ينطق بغير لفته فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه فإن كان شاركا له أبغضه لأنه يزاوجه في حرمة، فإن بعد عن طريق

مواجهته أبغضه لأنه يخالفه في رأيه، فإن لم يخالفه أبغضه لأنه لا يحاكيه في لونه، فإن لم يحاكيه
شيئاً من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه شخص سواه، كما أن تضارحتم على الإنسان أن
ينفض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مآثره.

ويشعر بوجوب إنهاء هذه الاختلافات بينهم واتحادهم على أساس الإنسية فتكون هي الجامعة الأولى
بينهم: "الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة"^٢
و"الجامعة الإنسانية هي الجامعة الأساسية الثابتة... التي تسير مع الإنسان حيث سار"^٣ وما
من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية إلا وهي تعتمد على الجامعة
الإنسانية في سيرها وتستظل بظلها، وتهتدي بهديها^٤. ونستطيع أن نرى هذا المعنى في هذه
الكلمات أيضاً: "والألم هو النبوع الذي تنفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو
الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه بل
هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها". كما أنه يشعر أيضاً بالأضواء التي تلحق بالإنسان إذا
اختلف الأفراد كل عن غيره. "وهناك تخل كل عقدة وتنقسم كل عروة، ويحمل كل إنسان لأخيه
بين أضلامه من لوائح البغض والمقت ما يرنق عيشه، ويطيل سهره، ويقلق مضجعه، ويحجب

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١١٩، ج ١٢.

٢- أيضاً، ص ١٦٦، ج ٢.

٣- أيضاً، ص ١٦٦، ج ٢.

٤- أيضاً، ص ١٦٦، ج ٢.

٥- أيضاً، ص ١٦٦، ج ٣.

إليه صورة الموت، ويغض إليه وجه الحياة' . . . فلا يجد له في الوحشة مؤنساً ولا على الهموم عينا^١؛

٥- كان العرب القدماء قريبين من الطبيعة فيقول المنفلوطي: "كانت العرب في

جليليتها أمة هائلة متبدية على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجمالها، ولا تعبث

المدنية في صورتها^٢، لهذا السبب جاء شعورهم قريبا من الحقيقة، صورة صادقة لحياتهم الاجتماعية

والأدبية حتى قيل "الشعور ديوان العرب"^٣. "ينطق العربي بما يعلم، ويقول ما يفهم، ويصور ما يرى ويحدث^٤

عما تمثل في نفسه حديثا صادقا لا تكلف فيه ولا تعمل؛ لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء وأرض

وسماء، وطعام وشراب، ومرافق وأدوات، على الفطرة السليمة الخالصة، فأحرى أن يكون شعره

كذلك^٥، فشعر العرب أيضاً قريب من الفطرة، "والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل

فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وفطرتها^٦، و

ما كان الرجل العربي في سبيل عهده ينظم الشعر، ولا يعرف ما قوامه وأعاريفه

وما علله وزخاماته؟ ولكنه سمع أصوات النواخير وحفيف الأوراق، وخويز المياه، وبكاء الحمام،

فلذله صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذله أن يبكي بكائها وينشج لنشيجها، وأن يكون صداها العاكي

لنراتها ونغماتها؛ فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية

الحذبة الخالصة؛ ولا من أبجده وضروره سوى أنها صورة من صوره، ولون من ألوانه^٧.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٦٣، ص ١٦٣،

٢- أيضاً، ص ١٦٥، ص ١٦٥،

٣- أيضاً، ص ١٦٥، ص ١٦٥،

٤- أيضاً، ص ١٦٥، ص ١٦٥،

٥- أيضاً، ص ١٦٥، ص ١٦٥،

٦- أيضاً، ص ١٨٠، ص ١٨١،

وفهم قرب شعر العرب في الجاهلية من الطبيعة من هذه العبارة أيضاً حيث يقول أن :

الغناء من من الفنون الطبيعية، تهتدى إلى الله الأسم بالطرفة المترنمة في هدير الحمام وخرير
المياه، وحفيف الأشجار.... وما زال هذا الفن مبتدئاً بعبادة الالهة العربية... وكذلك
كان شأن العرب في جاهليتهم، ينظرون أشعارهم على نسب متوازنية، وأنغام موزونة
فالببيت يوازن البيت في ترتيب الحركات واسكنات وتعدادها، والشطرو التفعيلة يوازنان
الشطرو التفعيلة كذلك، فكانوا يهينون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر الخلفاء
موسيقية!

٦- من الحكمة والعقل أن يطمأن الإنسان إلى الحقيقة والواقع وهذه هي السعادة الحقيقية

"ونظروا إليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم أن السعادة الكاذبة أمر مذاتاً في الأنواء من الشقاء
الصادق". لكن من أراد أن يعتبط بنعمة العيش في هذه الحياة ويربح فؤاده ويشج صدره ويجد
السعادة الكثيرة، فعليه أن يحيا حياة شعرية لأنه لا يجد هذه الأشياء في الحياة الحسية؛ "لولا
الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحياناً لسمع في نظورهم رجة الحياة الحسية ومزماً مذاقها في
أفواههم، حتى ما يعتبط حتى بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت". وفي "على سرير الموت" تعبر
الفتاة عن نفس الفكرة: "أنت سعيد بالأمل وأنا شقية بالحقيقة الواقعة. إنك سعيد لأنك تظن
أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها، وأنا شقية لأنني أتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها". ومن قول المنفلوطي:
"أرى إنني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها، وما السعادة في الدنيا إلا لمحات

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٦٦،

٢- أيضاً، ص ١٩٤،

٣- أيضاً، ص ١٩٤،

٤- أيضاً، ص ١٩٤،

كلمات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها^١. ويقول المنفلوطي إن على هذا الأساس يقول بعض الناس أن العقلاء أشقى الناس. لأن نصيبهم من الحياة الشعرية أضعف من نصيب المجانين منها:

وذلك أن عقل العاقل يحول بينه وبين استمراء الطيور في فضاء الخيالات الذهنية
والمفانيات الشعرية، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له
علمه بأحوال الدنيا وتشؤونها، ومعرفة أن المصائب والآلام لأدم من لوازمها التي لا
تفارقها؛ يؤمل منها في طبيعتها من دوام السرور واستمرار السعادة، فلا يطلب سعة
العيش من وراء الأساليب كبقية المومنين، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين.^٢

٧- "الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها" وكذلك العظمة. "العظمة كالحقيقة

يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها".

٨- على الإنسان أن يعيش على الفضيلة في ذاتها ومن أجلها. سلب الإنسان حريته

في هذا العصر وأفسد عليه وجدانه فلا يحزن على هذه المسارة: "صنع الإنسان القوى للإنسان

الضعيف سلاسل وأغلالاً، وسماها تامة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهره

حريته باسم الناموس والنظام". و"ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جانيته

١- المنفلوطي، انظرات، ص ١٤٣

٢- أيضاً، ص ١٤٤

٣- أيضاً، ص ١٤٥

٤- أيضاً، ص ١٤٦

٥- أيضاً، ص ١٤٧

الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه ' فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ' ولا يذرف دعة واحدة عليها.^١
 فأصبحت حياة الإنسان حياة ضمنية اعتبارها ولا معنى، ولا وجود لها في الأصل: "حياة الإنسان في
 هذا العالم حياة ضمنية مدّ حلة في حياة الآخرين، فلونتش عنها لا يجد لها أثراً إلا في عيون الناظرين،
 وآذان السامعين، وأفواه المتكلمين" و "إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين، فأى
 مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكثرة متعددة، إنما هي حياة واحدة يتفق جوهرها^٢
 وتتعدد صورها". ولكن يجب على الإنسان أن يحيا حياة ذاتية و الحرية في الحياة نظوته التي فطر
 عليها ومن حقوقه السلوبة ولا سبيل له إلى السعادة في الحياة إلا إذا عاش حراً مطلقاً "ليست الحرية
 في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً، أو طارئاً غريباً، وإنما هي فطرته التي فطر عليها منذ كان وحشاً يتسلق
 الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار. إن الإنسان الذي يمد يديه لطلب الحرية ليس بممتسول ولا مستجد،
 إنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن فطر بها فلامنة لمخلوق عليه^٣
 ولا يد لأحد عنده" و "لا سبيل إلى السعادة في الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً لا يسيطر
 على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس". ومعنى الحياة الذاتية أن يكون
 مقياس أعمال الإنسان هو الفضيلة في ذاتها، لا كما يراها الناس وبتقطع النظور بما يترتب عليه من النتائج:
 نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذمباً من مذاهب الخير

١- المنطوق، النظرات، ص ١١٣ ج ١

٢- أيضاً، ص ٤٧ ج ٢

٣- أيضاً، ص ٤٧ ج ٢

٤- أيضاً، ص ١١ ج ١

٥- أيضاً، ص ١١٣ ج ١

وطريقاً من طرق الهداية للعالم عنها لو أن الفضيلة هي الخلق المنتشرون فيهم، والغالب على أمرهم،
ولو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي، لا من حيث
تشخيصها في أذهان الناس وقولهم، فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت
ستقر ما من نفسه، جعلها سيرةً يأنس بها أقواله وأفعاله كما يأنس به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا
يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه، أم أحبوه أم أبغضوه،

و"الخلق هو أداء الواجب لذاته بقطع النظر عما يترتب عليه من نتائج". فالفضيلة ليست "طائفة من
المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع من الكوكب، والريح
من الزمهرير، ولا هي "وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هي حالة من حالات النفس
تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال". والفضيلة تسمو على الاختلافات
البشرية. "فالفضيلة أعلى قدراً من أن تنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه، وجريمة لا تغتفر ما!"^٥
وكما بينا سابقاً لفساد تصور الناس في هذا العصر لا يبلغ الرجل الفضل غايته من
عيشه لأنه لا يعيش بين من يخطون بشأن الفضيلة ويقدرونها، فلا ينزل من نفوس الناس
منازل الحب والإكرام. "من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبه فيه
فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش، في عصر مثل هذا العصر

١- المتقوطين، النظرات، ص ٥٤، ٥٥، ٥٦.

٢- أيضاً، ص ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦.

٣- أيضاً، ص ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦.

٤- أيضاً، ص ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

٥- أيضاً، ص ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

وناس مثل هذا الناس، نلّيعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل^١.

٩- لا يمكن القضاء على الفساد نهائياً. "لو كان لي أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع

الإنساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يداي ولا جردت قلما، لأني أعلم أن طلب المحال

عشرة من عشرات النفوس، وضلة من ضلالت العقول^٢. ويقول مخاطباً تولستوى: "ربما

استطاع الحكيم أن يحيل الجاهل علماً، والظلمة نوراً، والسواد بياضاً، والبحر براً، والبر بحراً، وأن يتخذ

نفقاً في الأرض أو سبلاً في السماء، ولكنه لا يستطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة

وفساده صلاحاً^٣."

١٠- الدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون يوم لا يجدون لأنفسهم ناصرًا

ولا معيناً. فمما يقول المنفلوطي في مقدمته: "كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة في نفوس

الباكين؛ فلما أحسبت الرحمة أحسبت الدموع لحباً^٤. ويكتب إلى أحد الكاتبتين إليه، يعزّيه:

"فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب

من مذاهب الأرض ولا في سبيل من سبل السماء ناصرًا ولا معيناً^٥."

١١- أهمية الأمل في الحياة. يخاطب "الغد" ويقول له: "لا... لا؛ من سرّك في

صدرك، وأبقى ثباتك على وجهك، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا حتى لا تنفجنا في أرواحنا

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٦٧، ١٦٨ ج ٣

٢- أيضاً، ص ٧١ ج ٢

٣- أيضاً، ص ١٥٢ ج ٢

٤- أيضاً، ص ١٧ ج ١

٥- أيضاً، ص ٧٤ ج ٣

ونفوسنا، فإنما نحن أحياء بالآمال ومان كانت باطلة، وسعداء بالأمانى ومان كانت كاذبة،^١ ويقول نحاطبها
شبابه: "ولكى كنت أوصل وأرجو، وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أنا وأنعم"
وليس الأمل إلا باباسن أبواب الحياة الشعرية، ولا يوجد بين ثلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال
العظام والأمانى الحسان؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التى يعيش فى ظلها الناس جميعاً ذكياً
وأغبياء،^٣ فهما وبلداً.^٣

١٢- المرأة تساوى الرجل فى الذكاء لكنها تقل عنه فى العقل، فباستطاعة المرأة
أن تجارى الرجل فى سرعة الفهم وحضور البديهة وأن تدرئ ما يدركه الرجل من الشئون
والأطوار وأن تستخرج المجهولات من المعلومات كما يستخرجها الرجال، لكنها لا تستطيع أن
تجارى الرجل فى الأناة والرفق وامتلاك هوى النفس، والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره
وعما تحب ولا أن تتفجع بمعلوماتها كما ينتفع بها الرجل "لأن بين جنبيها نفساً غير نفسه"
وهوى غير هواه، ولأن لها قلباً صغيراً لا يتوسى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير؛ يمشى الرجل
وراء عقله فيهديه، وتمشى المرأة وراء قلبها فيضلها، فما وقفت معه فى موقف إلا سقطت بين
يديه بحزاً وضعفاً؛ لأنه يعرف السبيل إلى قلبها، ولا تعرف السبيل إلى عقله.^٤

١- المنفلوطى، النظرات، ص ١٤ ج ١

٢- أيضاً، ص ٤٣٣ ج ٣

٣- أيضاً، ص ١٤١ ج ٢

٤- أيضاً، ص ٣٨، ٣٩ ج ٢

١٣- بعض التعريفات أو الكليات العامة.

- ١- العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها^١.
- ٢- الانتماء لشيء ما اتصل باليه النفس من الجبن والخور، وما يصل باليه العقل من الاضطراب والخبيل.
- ٣- الغنى هو الغنى بما في يده عما في أيدي الناس^٢.
- ٤- وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها^٣.
- ٥- حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده^٤.
- ٦- الألم هو اليبوع الذي تفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه^٥.
- ٧- العظمة قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مثالبهم، ولا داخل في كلياتهم من كلياتهم العامة^٦.

١- المنقول من النظرات، ص ١٠٩ ج ٢

٢- أيضاً، ص ١٣٧ ج ٢

٣- أيضاً، ص ٦٩ ج ٢

٤- أيضاً، ص ١٣٧ ج ٢

٥- أيضاً، ص ١٣٧ ج ٢

٦- أيضاً، ص ١١١ ج ٣

٧- أيضاً، ص ٤٦ ج ٣

- ٨- صوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم.^١
 ٩- أقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها.^٢
 ١٠- البيان تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثل في ذهن السامع كأنه يراه ويلسه لا يزيد على ذلك شيئاً.^٣
 ١١- الزمن خير مؤدب ومهذب.^٤
 ١٢- النظرات تعبر عن معاني بعض الآيات أو الأحاديث الشريفة أو الأبيات أو الأقوال المشهورة.

- ١- "ولا تقولن لشأني إني فاعل ذلك غداً" إلا أن يشاء الله. (الكهف، ٣، ٤٤)
 ونقرأ في "الغد" "ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكتبو دون غايته؟ وهل أستطيع أن أتم رسالتى هذه، أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها؟ لأني لا أعرف من شئون الغد شيئاً، ولأن المستقبل بيد الله".^٥
 ٢- "نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين" (الواقعة، ٦٠)
 جاء في الرثاء للشيخ علي يوسف "اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حي، وأن مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سها ماطئشة، ولا نياقاً عشواء وأن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٢٣ ج ٣

٢- أيضاً، ص ١٣٥، ١٣٦ ج ٣

٣- أيضاً، ص ٤ ج ٣

٤- أيضاً، ص ٢ ج ٣

٥- أيضاً، ص ٣٩ ج ١

التربة التي نبتت فيها أشواك الموت^١.

٣- "إن من البيان لسحراً".

المقالة "سحر البيان" تعبر عن هذا المعنى.

٤- "إن من الشعر لحكمة".^٣

يقول المنفلوطي عن الشعراء "فهم مشارق شمس الحكمة".^٤

٥- "خير الأمور أوسطها".

"سعادة العيش وهناءه وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد وهو الاعتدال".^٥

"بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة، وبين الجور والجهل منزلة هي الحكمة، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبهِ الفضائل والروذائل".^٦

٦- ذوالعقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم (المتنبى)

"يقولون: أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء، ويقولون: مألذة العيش إلا للجهالين. أتدري لماذا؟

١- المنفلوطي، انظرات، ص٣٤ ج ٣

٢- عبد الرحمن طاهر سودقي، تاريخ أدب عربى (لاهور) شيخ غلام على ايند سنز - پبلشرز، ١٩٤٩م) ص٢٣

٣- أيضاً، ص٣٤

٤- المنفلوطي، انظرات، ص١٨٨ ج ٣

٥- أيضاً، ص١٩٠ ج ٣

٦- أيضاً، ص١٩٩ ج ٣

لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين^١.

٧- "بطنة الغنى انتقام لجوع الفقير".

المقالة "الغنى والفقير" تترجم هذا المثل.

٨- "تعرف الأشياء بأضدادها".

"وما السعادة في الدنيا إلا لمحات كلميات البرق تحقق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها".^٣

الخصائص الأدبية للنظرات :

١- أسلوب المنفلوطي خبري مستترج بالخطابي على الغالب لما نجد عنده من

المواعظ والنجوى والتعريفات الخطابية البديعية. هنا أورد بعض الأمثلة لذلك :

"أيها القصر: أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك؟ أين النسر الباطر الذي كان يخلق في أجوائك؟"^٤

"ويا أيها الآباء العظماء: إن كنتم تريدون أن تسلموا أبنائكم إلى هذه المدينة الغربية تتولى شأنهن وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة؛ حتى

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١٤٢،

٢- أيضاً، ص ٥٨،

٣- أيضاً، ص ٣٤،

٤- أيضاً، ص ١٩،

«إِذَا رَزَأَ كُمُ الدَّهْرُ فَيَهِنُ، وَفَجَعَلَكُمْ فِي أَعْرَاضِهِنَّ، وَقَفْتُمْ أَمَامَ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ هَادِثِينَ مَطْمَئِنِينَ»^١.
 «دَأَيْتُكَ يَا بَنِي فِي فِرَاشِكَ عَلِيلًا فَجَزَعْتَ، ثُمَّ خَفْتَ عَلَيْكَ الْمَوْتَ فَجَزَعْتَ»^٢.

«إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَخَذْتَ عَلَى الدَّهْرِ عَهْدًا أَنْ يَكُونَ لَكَ كَمَا تَرِيدُ فِي جَمِيعِ شُؤْنِكَ وَأَطْوَارِكَ»^٣
 وَأَلَّا يَعْطِيكَ وَلَا يَمْنَعَكَ إِلَّا كَمَا تَحِبُّ وَتَشْتَهِي؛ فَجَدَّ يَرْبُكَ أَنْ تَطْلُقَ لِنَفْسِكَ فِي سَبِيلِ الْحُزْنِ
 عَنْهَا كُلَّ مَا رَيْتَ مَأْرَبًا، أَوْ اسْتَعْصَى عَلَيْكَ مَطْلَبًا»^٤.

٢- الإفراط في استعمال المترادفات ومعاقبة الحمل على المعنى الواحد، والإسهاب

المديد الذي تفيض معه الألفاظ، وهو في إسهابه وترادفه مثل الذي يتطرق في مزاجه
 لفظه ويستطرب بوقع نبراته بسبب ديباجته المشرقة ولغته الموسيقية، مثل:

«دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا» وَبَاعَتِ الْفَتَاةُ جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ يَدَهَا، وَمَا يَحْمِلُ بَدَنَهَا، وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ غُرْتَهَا،
 مِنْ حُلِيِّ وَثِيَابٍ، وَأَثَاثٍ وَرِيَاشٍ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا إِلَّا قَمِيصُهَا الْخَلْقُ وَمَلَأَتْهَا وَهَرَقَهَا»^٥.

«ثُمَّ تَقْدُمُ نَحْوَهَا وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِهَا بِرَفَقٍ فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا مَرْتَابَةً مَذْعُورَةً وَهَمَّتْ بِالْفِرَارِ مِنْ
 بَيْنِ يَدَيْهِ وَهِيَ تَصِيحُ "لَا أَعُودُ... لَا أَعُودُ" فَلَمْ يَزَلْ يَمْسَحُهَا وَيَرُوضُهَا حَتَّى هَدَأَ رَوْعَهَا وَعَادَ إِلَيْهَا
 رَشْدَهَا وَعَلِمَتْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّجُلِ الَّذِي تَخَافُهُ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةً لَو أَنَّهَا اتَّصَلَتْ
 بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَهِمَتْ لِحَدِثَتِ عَمَّا رَأَتْهَا مِنْ لَوَاعِجِ الْأَحْزَانِ وَكَوَاسِنِ الْأَشْجَانِ»^٦.

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٤٤.

٢- أيضاً، ص ٤٧.

٣- أيضاً، ص ٦٨.

٤- أيضاً، ص ٩٥، ٩٦.

٥- أيضاً، ص ٧٥.

ذلك ما أسهر ليلها، وأتقى مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها،
فلم تربها بدامن الفؤاد بنفسها، والنجاة بحياتها، فعدت إلى ليلة من الليالي السوداء
فلبستها، وتلفعت بردائها، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود، فما زالت أمواجها
تترامى بها حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل
البالية، في بعض الأحياء الخاملة.

٣- يبدئ المنفلوطي ويعيد في معانيه على طريقة الخطباء بل يستعير منهم النداء مثل
أيها الإنسان، ونجد عنده التكرار في الكلمات، مثل الخطباء مثل، إرحم، إرحم، وإيضاً توجد عنده كثرة
الفواصل بين العبارات، وهذا يدل على تأثره بأسلوب الخطابة في محضره، عند مصطفى كامل وأمثاله.
وقد يكون هذا بسبب انفعالاته العاطفية. مثال النداء: "أيها السعداء، أحسنوا إلى البائسين
والفقراء، واسعدوا دموع الأتقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".
من أمثلة التكرار "الفضيلة الفضيلة"، "الشرف الشرف".
مثال كثرة الفواصل "يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح، وأن يكون أدب
الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره، فإن ألبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات
أساس صلاتهم وعلاقتهم، ويزان قيمهم وأقدارهم، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلي، وأنهم
لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين".

١- المنفلوطي، انظرات، ص ١٣٤،

٢- أيضاً، ص ١٤١،

٣- أيضاً، ص ١٤٥،

٤- أيضاً، ص ٤٢،

٤- المنفلوطى براءة فى اصطناع التشابيه المحسوسة و الكنايات والاستعارات والإشارات

منعطى بها صوراً حسنة للأشياء المادية التى يريد وصفها. ومما يجدر ذكره أنه كان يجتنب قدر استطاعته الرواسم الموروثة المتداولة. فلا توجد هذه الأشياء فى كتابته الا قليلاً. وأحياناً اتخذ تشابيهه وصوره من الفنون العصرية المستحدثة. مثل قوله: "وكنا سولعين بالتقليد ولعكم به؛ لئلا نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا فى الحياة؛ بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط "الفلم" صورته؛ كأن فضاء حياتنا محل لتجارب الحياة واختباراتنا".

٥- تشابيهه جميلة، مثل قوله: "لم تستطع يد الموت أن تحوكل آثار جماله؛ بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التى يستنشقها الإنسان فى الزهرة الذابلة". ومن تشابيهه: "بنى فلان فى روضة من بساينه الزاهرة قصرًا فخماً يلاً لأى تلك البقعة الخضراء، تلؤلؤ الكوكب المسير فى البقعة الزرقاء، ويطاول بشرفاته السماء أفلاط السماء، كأنه نسر محلق فى الفضاء، أو قرط معلق فى أذن الجوزاء، وكأن شرفاته آذان تفضى إليها النجوم بالأسرار وطاقاته أبراج تنقل فيها الشمس والأقمار" وأيضاً: "فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم".

٦- من تشابيهه تشابيهه بليغة، مثل:

أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها، وهذه النجوم البعثرة حرايك تلالد من

١- المنفلوطى، انظرات، ص ٦٣

٢- أيضاً، ص ١٩٩

٣- أيضاً، ص ٩١

٤- أيضاً، ص ١٢

جبان؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حود وولدان؟ أم فئس من
 ماس يتلأ لأ وهذا اللفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم سكرة صافية وهذه الهالة
 الدائرة بك إطار؟ أم عين ثرة تاجة؟ وهذه الأشعة جداول تدفق؟ أم تنور سمجور؟
 وهذه الكواكب شرر يتألق؟^١

٧- من الإشارات التمثيلية في النظرات: "وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء

للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود، وليس في يدها ما تنقيه به إلا أسحال تتراوى
 سرقها في جسمها العارى كأنها آثار سيات المستبدين^٢ في أجسام المستعبدين^٣."

٨- يضرب الأمثال القصيرة لإيضاح فكرته. "فكما لا يجوز أن نقول: ما أجل

الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الحمرة وأمر نشوتها كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال
 والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل، ولا حيز
 خاص، فجعله جمال معناه، وقبحه قبحه^٤، ويضرب مثلاً في "سياحة في كتاب" فيقول: "ولكان
 مثلي مثل ذلك الرجل الذي أحب امرأة فاستزارها فمنعته حيناً ثم زارته، فلما رآها تركها وذهب
 لينام فحجبت لشأنه وسألته: ما باله؟ فقال لها: أريد أن أنام على أرى طيفك في المنام^٥."
 وأحياناً يضرب الأسئلة بذكر بعض القصص:

لما أسن عمر بن أبي ربيعة ورأى أن شعر الغزل والتغابي غير لائق بشيبه

١- النفلوطي، النظرات، ص ٥٥ ج ١

٢- أيضاً، ص ٧٥ ج ٢

٣- أيضاً، ص ٧٥ ج ٣

٤- أيضاً، ص ١٥ ج ٢

ورقاره، غزم على هجره فما استطاع إلى ذلك سبيلا وغلب على أمره كما يغلب الرد على
غرائزه وسجاياه، ما حال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتا من الشعر إلا أعتق رقبة، فشكا
إليه رجل حبا يروح به، فحن واحتاج، ونظم أبياتا في شأن الرجل ووجده، ثم أعتق عن
كل بيت رقبة.

٤- يستشهد كثيرا بالشعر أبياتا كاسلة، أو أنصاف أبيات.

ولست حياة المرء إلا آماليا ما ذاهي ضاعت فالحياة على الأثر
نصم السميع وتعمى البصير ويسأل من مثلها العافية^٣
عمى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عمى وصوت إنسان فكدت أطيرو

سأل الاستشهاد بنصف بيت : ٥ وحلت مكانا لم يكن محل من قبله^٥

وقد يحلل المنفلوطي الشعر فيجعله نثرا، كقوله يباحي القمر: "وهأنذا يخيل إلى أنى أرى صوته
في سرائك، وكأنى أراه يبكي من أحلى كما أبكى من أجله، فأزدد شوقا إليه، وحرنا عليه، فابق في مكانك طويلا
تطل وقفنا، ويدم اجتماعنا".^٦

١٠- الاستشهاد والترقيع بالآيات القرآنية الكريمة، مثل "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٢٤٣ ج ٢

٢- أيضا، ص ٤١ ج ١

٣- أيضا، ص ٤١ ج ١

٤- أيضا، ص ٥٧ ج ١

٥- أيضا، ص ٧٣ ج ١

٦- أيضا، ص ٥٤ ج ١

الباطل كان زهوقاً^١ اقتبست هذه الكلمات من سورة الإسراء الآية رقم ٨١ . و " يتطرقون بها تنطق الشفاه بريقتهما؛ حتى تسف وتبذل وحتى ما تكاد تسيغها الحلق؛ ولا تطرف عليها العيون؛ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^٢ . وقد ورد في القرآن الكريم؛ " الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^٣ " (الكهف، ١٠٤)

و " وتطلبون جنة عرضها السماوات والأرض^٤ " وقال تعالى؛ " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين^٥ " . (آل عمران، ١٣٣)

١١- له تعابير محبوبة عنده مثل " وارحمته^٦ " و " في ليلة من ليالي الشتاء حائلة الجلباب غدا فية الإهاب^٧ " و " جنينا يضطرب^٨ " .

١٢- له استعمالات غير مستحبة . منها ما اتخذت لغير معناها " متمدينا^٩ " بمعنى متدنا . ومنها ما يقتضب بها الكلام امتضا بارلا سيما في المواقف العاطفية، والمواقف التي تحتاج إلى تفصيل، أو تحليل نفسي ويكون امتضا به على الأخص كقوله؛ " فألم بكل شيء^{١٠} "، " ففهمت كل

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٣٤٢،

٢- أيضاً، ص ٤٢،

٣- أيضاً، ص ١٥٧،

٤- أيضاً، ص ١٥٣، ص ٧٤، ج ٣

٥- أيضاً، ص ٩٤، ص ١٧٤، ج ١

٦- أيضاً، ص ١٤٩، ص ٩٣، ج ٢

٧- أيضاً، ص ٧١، ج ٢

٨- أيضاً، ص ٨٧، ج ٢

شيءاً، ولما حفظ كثرة هذا الاستعمال في النظرات مع قلة توفيقه به . نجد مثال هذا في كلامه على المرأة التي أراد زوجها أن يبلو أمانتها وماءها معه، فاتفق مع أحد تلاميذه عليها، ثم تظاهر أنه مات وتظاهر بالتلميذ أنه مريض، فهاست به المرأة، فادعى التلميذ أن لا سبيل إلى شفاؤه إلا أن يطعم دماغ ميت ليومه . فأحضرت المرأة فأسا لتفلق رأس زوجها لإخراج دماغه . فلما اقتربت من السرير الذي كان عليه فتح عينيه . يصف المنفلوطي تأشير هذه المفاجأة في نفس المرأة، وما كان من أمرها في هذا الموقف بهذا الاقتضاب :

ورنعت الفأس لتفرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده، ولم تك
تحمي بها حتى رأت الميت فاحتاع عينيه ينظروا إليها؛ فسقطت الفأس من يدها وسمعت
حركة ودلها فالتفت فترأت الضيف والمأدم واقفين يتضاحكان، ففهمت كل شيء .
وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يدك لتلك للمرأة .
أجل من هذه الفأس في يدك ؟ أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه
أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ؟ فصارت تنظروا إليه نظراً غريباً ثم
شهقت شهقة كانت منها نفسها .^١

١٣- رد المجلس على نفسها للمشاركة في العمل . " لا يعلم أتشبه القامات الغصون ؛
أم الغصون القامات ؟ " .

١٤- نجد السجع في سرائع كثيرة في النظرات . منها : " بنى فلان في روضة من بساتينه
الزاهرة قصراً فخماً يتلأأ في تلك البقعة الخضراء، تلؤلؤ الكوكب المسير في البقعة الزرقاء، ويطاول بشرفاته
السماء أفلاك السماء، كأنه نسر محلق في الفضاء، أو قرط معلق في أذن الجوزاء، وكأن شرفاته أذان

١- المنفلوطي، النظرات، ص ١١٥

٢- أيضاً، ص ١١٥

تفنى إليها النجوم بالأسوار، وطاقاته أبراج تنقل فيها الشمس والأقمار^١ و"إن اللورد كورنر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته أن الإسلام دين موضوع ابتداءه رجل عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأى مدينة الرومان، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع وال عمران".

١٥- كما يوجد الطباقي أيضاً في أماكن كثيرة، منها: "فلا أشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وخزنها"^٢. ومن أمثلة طباق السلب: "فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوار بيضاء، وورد حمراء، وألوان من النبات، مشتبهات وغير مشتبهات"^٣. ومن أمثلة المقابلة: "يسمع السامع أن زيداً ملك كريم، ثم يسمع أنه شيطان رجيم، فيخرج منه صفر اليمين، لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين"^٤.

١٦- جناس ناقص مثل "عزوفاء عيوفاً"^٥ و"لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم"^٦.

١٧- أساليب استغماية تخرج إلى معاني مختلفة. مثل الاستحاثات: "فهل لأولئك

١- المتلوي، انظرات، ص ٩١ ج ١

٢- أيضاً، ص ١٦٢ ج ١

٣- أيضاً، ص ٥٧ ج ١

٤- أيضاً، ص ١٤٤ ج ١

٥- أيضاً، ص ٧٢ ج ١

٦- أيضاً، ص ٣ ج ١

٧- أيضاً، ص ٤٤ ج ١

السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشتقاء يد البر والمعرف^١، والنفي "علام يهنئ^٢ أناس بعضهم بعضاً؟ وماذا لقوا من الدنيا فيحرصوا على البقاء فيها؟" والتعجب: "كيف هان عليه وهو في آخر يوم من أيام حياته، أن يضم إلى خسارة دنياه خسارة آخرته وهي الخواء الباقى له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء^٣."

١٨- أساليب التمنى مثل: "يا سكان القصور: ليتكم من سكان الأكوخ؛ لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين^٤."

١٩- من صيغ التعجب: "ما أكثر هموم الدنيا وما أطول أجزائها^٥، ومثال صيغة الدعاء "تبصها الله؛ وقبح كل ما تأتى به^٦."

٢٠- من أسماء التفضيل التي توجد في النظرات: "ليس موقف الجندى في معترك

الحرب بأخرج من موقف المرشد في معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحها بأقرب من سلب النفوس غرائزها وميولها^٧."

٢١- حسن التعليل، كما جاء في "يا أيون الصغيرة" "لذلك يحل الموت إليهما لأن سكان

١- المنفلوطي، النظرات، ص ٥٥ ج ٣

٢- أيضاً، ص ١٤ ج ٤

٣- أيضاً، ص ١٣٧ ج ٣

٤- أيضاً، ص ١٤١ ج ٣

٥- أيضاً، ص ١٣٨ ج ٤

٦- أيضاً، ص ٣٤ ج ٣

٧- أيضاً، ص ٣٣ ج ٤

السما لا يستطيعون أن يعيشوا طويلاً على ظهر الأرض^١.

٢٢- تلميح ، حيث يشير إلى قصة يونس عليه السلام ، فيقول : " كما هوى يونس "

الذى التقه الحوت نمشى فى ظلمات بعضها فوق بعض !^٢ .

٢٣- نرى استعمال المفاعيل المطلقة بكثرة : مثلاً : " يقصون فى بعض الأساطير

القديمة أن حكيم من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً مملئ عليه عقله وقلبه ، وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمانج هوائته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها^٣ .

وأهم هذه الخصائص التى يرى أثرها واضحاً فى النظرات هى الاستشهاد والترقيع

بآيات القرآن الكريم والاستشهاد بالآيات الشعرية واستعمال المفاعيل المطلقة والسجع .

١- المنفلوطى، النظرات، ص٣٣

٢- أيضاً، ص١٤٢

٣- أيضاً، ص٧٢

مصادر البحث

- الإسكندري: الشيخ أحمد وعناني: الشيخ مصطفى الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، مصر: دار المعارف، الطبعة السادسة عشرة.
- أونيس: محمد الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤. الفجالة: دار الجيل للطباعة.
- البستاني: بطرس أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث حياتهم - آثارهم - نقد آثارهم، بيروت: دار المكشوف ودار الثقافة، ١٩٦٨.
- زيدان: جرجي تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، دار الهلال، طبعة جديدة.
- ضيف: شوقي الأدب العربي المعاصر في مصر، القاهرة: دار المعارف، الطبعة السابعة.
- ضيف: شوقي تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثامنة.
- عبد الفتاح: محمد محمد أشهر مشاهير أدباء الشرق، الجزء الثاني في نوابغ الأموات، الناشر عطية محمد علي الكتبي، الطبعة الثانية.
- عبيد: أحمد مشاهير شعراء العصر في الأقطار العربية الثلاثة مصر، وسورية، والعراق، القسم الأول شعراء مصر، مطبعة الترقى، ١٩٥٢م.
- الفاخوري: حنا تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية.
- كوكن: محمد يوسف أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، الجزء الأول.
- حيدرآباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
- المنفلوطي: مصطفى لطفى النظرات، ثلاثة أجزاء، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م.

المنفلوطي: مصطفى لطفى العبرات . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٣٧ .
 سورتي: عبد الرحمان طاير تاريخ ادب عربي، ترجمه تاريخ الادب العربي . لاهور: شيخ غلام
 على ايند پبلشرز ، ١٩٧٦ -

Haywood, John A. Modern Arabic Literature 1800-1970.
 London: Lund Humphries.

Mahdi: Ismat Modern Arabic Literature. Hyderabad:
 Dairatul - Ma' arif Press.

"Arabiyya," Encyclopedia of Islam (1979), p. 603

"Al-Manfalutiyya," Encyclopedia of Islam (1991), pp. 414-15.